المتنبى فى موازين النقد

بقلم
رئيس التحرير

نبى قمة من القمم العالية فى
هو فى رأى المعجبين به والمدمنين
م شعراء العربية على الاطلاق ،
لذا الرأى ممن يمكن الاطمئنان
على الأدب العربى والثقة بسلامة
؛ تقديرهم ، وقد تختلف الآراء
نبى ، وفى التقديرات الأدبية
بالذوق لا يستطيع الانسان أن
ب له أو أن يصدر حكما نهائيا
، وربما كان من أقرب الأحكام
ب المتنبى أنه أقدر شعراء العرب
، الشعر العربى ، هذه العبقرية
ـدرة الفائقة على استخلاص
ملحوظ ولمح الحقائق والبدائة
ـل الحلقات مترابط العلل

، سمو مكانة المتنبى فى الأدب
كل جيل من الأجيال المتعاقبة
ن الرابع الهجرى بأنه فى حاجة
لأدبه واعادة النظر فى دراسته
اق الاهتمام بأدبه ودراسته
شاعر آخر من شعراء العربية
ة ما حفل به الأدب العربى من
وفحولهم .

يرون الوقوف على ينابيع هذه
ستطلاع آفاقها المترامية ؛
وتناولوه بالتمحيص ليستكملوا
لم يرو لنا منها مؤرخو عصره
بة لا تنقع غلة الباحث ولا تكفى
اشف .

بى نحبه قتيلا وهو فى أوج قوته
ولكنى أرجح أنه لو كان امتد به
ء بخير مما جاء به ، ومهما يكن
ل أعطى قراء العربية أكثر مما
خيرة من الشعر الجيد والأدب
الأيام ما بقى على سطح الغبراء
ة العربية ويدرسون آدابها .

والمتنبى فى بعض اشعاره كالنبع القريب من الانسان ، والذى تستطيع أن تنهل من مياهه العذبة بيدك ، وفى بعضها كالبئر البعيدة القاع ، فانت فى حاجة الى اطالة الرشاء لتستقى منها ، وقد اتاح ذلك فرصة لشراحه الكثيرين ليظهروا براعتهم فى كشف الغوامض والتنقيب على المعانى المستبهمة والخواطر الدقيقة .

والمتنبى كسائر العظماء فى أدبه وشخصيته ما يثير الاعجاب الشديد والمبالغة فى التقدير من ناحية ، وما يبعث على النفور والكراهة المسرفة من ناحية أخرى ، وقد وصف ذلك الجرجانى فى الوساطة فقال « ما زلت أرى أهل الأدب منذ الحقتنى الرغبة بجملتهم ، ووصلت العناية بينى وبينهم فى أبى الطيب أحمد بن الحسين المتنبى فئتين ، من مطنب فى تقريظه ، منقطع اليه بجملته ، منحط فى هواه بلسانه وقلبه ، يتلقى مناقبه اذا ذكرت بالتعظيم ، ويشيع محاسنه اذا حكيت بالتفخيم ، ويعجب ويعيد ويكرر ويميل على من عابه بالزراية والتقصير ، ويتناول من ينقصه بالاستحقار والتجهيل ، فان عثر على بيت مختل النظام أو نبه على لفظ ناقص عن التمام التزم من نصرة خطئه وتحسين زلله ما يزيله عن موقف المعتذر ، ويتجاوز به مقام المنتصر ، وعائب يروم ازالته عن رتبته فلم يسلم له فضله ويحاول حطه عن منزلة بوأه اياها أدبه ، فهو يجتهد فى اخفاء فضائله ، واظهار معايبه ، وتتبع سقطاته واذاعة

(١) فن المتنبى بعد الف عام ، للأستاذ ابراهيم العريض.
مطبعة دار العلم للملايين ببيروت
الثمن ٤٠٠ ق ٠ ل ٠ أو ما يعادلها

(٢) ديوان المتنبى فى العالم العربى وعند المستشرقين ٠
تاليف المستشرق الدكتور ر ٠ بلاشير وترجمة المرحوم الأستاذ أحمد أحمد بدوى ملتزم الطبع والنشر مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ٠
الثمن ٢٥ قرشا

غفلاته ، وكلا الفريقين اما ظالم له أو للأدب فيه ، وكما أن الانتصار جانب من العدل لا يسده الاعتذار فكذلك الاعتذار جانب هو أولى به من الانتصار ، ومن لم يفرق بينهما وقف بين الملامة بين تقريظ المقصر واسراف المفرط » .

وقد حاول القاضى الجرجانى أن يقف موقف الحكم المنصف بين الفريقين المتخاصمين ووفق فى ذلك الى حد لا بأس به وكان كتابه ردا مناسبا للحملة الشعواء التى شنها الصاحب ابن عباد وأنصاره على أدب المتنبى .

والعبيدى صاحب كتاب « الابانة عن سرقات المتنبى » يتهم أنصار المتنبى بالغلو فى تقديره ويتهم المتنبى فى أصالته ويقول « لقد تأملت أشعاره كلها فوجدت الأبيات التى يفتخر بها أصحابه وتعبر بها آدابه من أشعار المتقدمين منسوخة ومعانيها من معانيهم المخترعة مسلوخة » .

ويقف الناقد المغربى محمد بن شرف القيروانى من أدب المتنبى موقفا معتدلا فيقول فى رسائل الانتقاد الأدبى التى نما فيها نمو المقامات ووقفها على الشعر والشعراء « أما المتنبى فقد شغلت به الألسن ، وسهرت فى أشعاره العيون الأعين ، وكثر الناسخ لشعره والآخذ لذكره ، والغائص فى بحره والمفتش فى قعره عن جمانه ودره ، وقد طال فيه الخلف وكثر عنه الكشف ، وله شيعة تغلو فى مدحه ، وعليه خوارج تتعايا فى جرحه ، والذى أقول ان له حسنات وسيئات وحسناته أكثر عددا وأقوى مددا وغرائبـ طائرة وأمثاله سائرة وعلمه فسيح وميزه صحـ يروم فيقدر ويدرى ما يورد ويصدر » .

وفى الفصل الذى عقده ابن خلدون مقدمته لحديث عن « صناعة الشعر ووجـ تعلمه » يقول « الشعر له أساليب تخصه لا تكـ للمنثور ، وكذا اساليب المنثور لا تكون للشعر فما كان من الكلام منظوما وليس على تـ الأساليب (أى الأساليب الخاصة بالشعر فلا يكون شعرا ، وبهذا الاعتبار كان الكثير مـ لقيناه من شيوخنا فى هذه الصناعة الأدبية يرـ أن نظم المتنبى والمعرى ليس هو من الشعر شىء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب عند يرى أن الشعر لا يوجد لغيرهم » وذكر بعد ذ أسماء بعض من أسماهم « الفحول الاسلاميين وأغفل ذكر المتنبى بينهم ، وعاد فى الفصل نفـ الى رأى شيوخه فقال « كان شيوخنا رحمهم يعيبون شعر أبى بكر بن خفاجة شاعر شـ الأندلس لكثرة معانيه وازدحامها فى البيت الوا كما كانوا يعيبون شعر المتنبى والمعرى بـ النسج على الأساليب العربية كما مر فـ شعرهما كلاما منظوما نازلا عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق » .

ويعلل المستشرق الفرنسى الدكـ ر ٠ بلاشير سوء رأى شيوخ ابن خلدون فى أـ المتنبى بقوله « فى النصف الثانى من القرن الثـ الهجرى تحت تأثير نوبة من التقوى والزهد اـ شملت اسلام أهل المغرب نظر كثير من الفقـ الى ديوان المتنبى نظرة كراهية ، لأنه قلما يـ بالتقاليد بينما هو دنيوى » .

ويحاول بلاشير أن ينفى عن ابن خلد المشاركة فى هذا الرأى وارتضاء هذا الـ فيقول « ولنسرع بأن نقول ان ابن خلدون بـ احترامه لأساتذته لم يرتض قط هذا الحكـ فهو يعيب المتنبى فقط كما يعيب كل نظـ « بأنهم جعلوا غرض الشعر فى الغالب انما الكذب والاستجداء » وقد كان ابن خلدون ر

ـشخصية قوى الحجـة مستقل التفكير كان يخالف شيوخه فى سوء رأيهم فى أدب ا تردد فى الاجتـراء على ابـداء رأيه ، عن التعليق على هذا الرأى يحتمل الى معنى الاقرار والموافقة ، وقد لاحظت فى التى كتبهـا ابن خلدون فى مقدمتـــه اه صناعة النظم والنثر وانتحال الشعر ذلك كان يغفل المتنبى حينما يذكر اسماء ار الشعراء فى معرض التقدير ، وحينما ه مقترنا باسم أبى تمام والبحترى كان معرض التنقص والاتهام بافساد الشعر بمستواه الى الكذب والاستجداء .

ستشرق بلاشـير دراسة وافية لأدب بع فيها حياته منذ مولده حتى وفاته ، نصـائده بالشرح والتفسـير ، وعنى الملابسات التاريخية التى نظمت فى خلالها د المتنبى الرنانة ، وفصل أخبار علاقته ره وأمرائه ، وبحث آراء النقاد القدامى فى شعره حتى سنة ١٩٣٥ ، وكتاب ن ناحية الاحاطة والاستيعاب يكاد يكون معرفتى منقطع النظير ، وقـد وددت ى عليه لو قدر لأحد الأدباء الدارسين أدب المتنبى أن يجـد متسعا من وقته الكتاب الى اللغة العربية ، لا لنتلقى أراءه لحق الذى لا يأتيه الباطل وانما لنفيد ف على منهج فريق من العلماء الغربيين ، ولنرى قيمة أدبنا العربى فى موازينهم ى مرآتهم ، والوقوف على وجهات النظر بين على جلاء الحقائق وتجنب الأخطاء ، ولا خوف على المشارقة فى هـذا طوار حياتهم من الخضوع لآراء الغربيين ذاهبهم ، فقد ذهب زمن الاسراف فى ب وشفى الشرقيون من عقدة النقص ، تزين لهم الاعجاب بكل ما يأتى من نقاص كل ما كان مصدره الشرق .

بدا للمرحوم الدكتور أحمـد احمـد يترجم الى العربية القسم الأخير من ير المشـار اليه ، وهو القسم الخاص بدراسة ديوان المتنبى عند العرب والمستشرقين ، ومع اعتقادى ان الكتاب جـدير بأن ينقل الى العربية برمته فاننى ارى أن الجزء الذى قام بنقله الدكتور بدوى له أهميته ، وبخاصة الفصل الذى يرينا موقف المستشرقين من شعر المتنبى .

وقد بدأت تقوى عناية المستشرقين بشعر المتنبى منذ أوائل النصف الثانى من القرن السابع عشر ، ولكن المستشرق الذى أذاع اسم المتنبى فى الغرب وجعله معروفا عنـد الكثيرين هو المستشرق رسك الذى توفى سنة ١٧٧٤ فقد ترجم ست عشرة قطعـة غزليـة وقطعتين فى الرثاء للمتنبى ، ولكنه برغم ذلك لم يكن من المعجبين بالمتنبى ، والمتنبى فى رايه يدعى العلم والشعر ، وهو فنان متكلف ودساس .

والظاهر أن هذا الحكم القاسى على المتنبى استدعى العطف والتقدير من مستشرقين آخرين ، فقد أثنى عليه بعد ذلك المستشرق هندل وختم حديثه عنه بقوله « ان كثيرا من قصائده فخم وعظيم جدا » .

وزادت عنـاية المستشرقين بالمتنبى وادبه وأخلاقه فى القرن التاسع عشر ، واختلفت مواقفهم منـه ، فبعضهم كان يثنى عليه ويكبر عبقريته ويمتدح فنه مثل دى لاجرانج الذى يقول عنـه « عندما ننتقل الى قراءة أبى الطيب بعد دراسة عميقة للغة العربية لا نستطيع الا أن تعرف فيه الصـفات التى تكون الرجل العبقرى ، هـذا الشاعر ذو خيـال وحمية وحماسة ، ويمتاز خاصـة بسمات الفحولة والنشـاط وسمو الأفكار » .

وفريق آخر كان ينتقص المتنبى ويعيب أخلاقه وشعره ، ومن هـذا الفريق المستشرق الفرنسى الشـهير سلفستر دى ساسى ، فقد كتب عن المتنبى يقول « أنا لا أظن أن شاعرا كالمتنبى لعب دورا هاما ، ولا نرى اليوم فائـدة كبيرة فى أن نعرف الدوافع الحقيقيـة لسلوكه ، ومع ذلك لا يعطينى التملق المفرط فى قصـائده أية فكرة عالية عن أخلاقه ، وخصوماته مع الرجال الذين كانوا قبل قليل موضـوع مدائحه ترتبط على

ما يبدو لى بخلق الطموح المخدوع أو الطمع الذى لا يشبع ».

والمستشرق فون كريمر يحكم على ديوان المتنبى قائلا « قصائد أبى الطيب تمتاز بالمبالغات ذات الذوق الردىء وبالأساوب الكثير الصنعة وبتغيير معانى الكلمات » وهو يفضل على ديوان المتنبى ديوان معاصره أبى فراس الحمدانى.

والمستشرق برو كلمان مثل فون كريمر لا يعجب بالمتنبى، ويضع أبا فراس فى منزلة أعلى من منزلة أبى الطيب، والمستشرق ايوار يرى الكثير من التكلف فى قول المتنبى: —

فى جحفل ستر العيون غباره
فكانما يبصرن بالآذان

(والضمير المستتر فى يبصرن يعود الى الخيل والمقصود أن النقع المثار حجب الرؤية عن الجياد فكانت كانما تبصر عن طريق السمع بآذانها وهو تصوير بديع رائع لمواقع القتال والمعارك الحامية الوطيس وليس فى هذا البيت الكثير من التكلف كما توهم ايوار)، وقد أضاف ايوار الى هذا النقد قوله « هذه الاختراعات الثقيلة من مدعى النبوة ومعاصريه كان لها نجاح عظيم حتى أصبحت حاكمة مستبدة بالشعر الشرقى ».

ويحاول بلاشير أن يخفف من شدة قسوة هذا الحكم فيقول فيما يشبه الاعتذار « ربما كان رايه أن الشرقيين هم وحدهم الأكفاء لأن يقدروا ديوان المتنبى، وأن يفرضوا فى ذلك رأيهم ».

والواقع أن الذى يطلع على آراء كثير من المستشرقين فى أدب المتنبى وغير المتنبى من شعراء العرب لا يسعه الا الاقتناع بصحة هذا الرأى فى أغلب الأوقات، ولقد أجاد المستشرقون المحدثون مثل كراتشوفسكى وجبريلى وبلاشير دراسة المتنبى، وأحسنوا استقصاء أخباره، ولكنى ارجح أن دراسات الأساتذة العقاد وطه حسين وجبرى ومحمود شاكر ومارون عبود وغيرهم من أدباء العروبة ونقادها أسلم تذوقا لأدب المتنبى من اخواننا المستشرقين على ما فيها من جهد مشكور وفضل لايصح لانكاره أو ا[illegible]

وقد رأى شاعر البحرين الأديب ا[illegible] والناقد القدير الأستاذ ابراهيم العريض أن [illegible] المكتبة العربية بكتاب قيم عن « فن المتنبى [illegible] ألف عام » وهذا الكتاب ثمرة أعجاب شديد [illegible] المتنبى ومصاحبة طويلة ودراسة مست[illegible] لديوان المتنبى، والأستاذ العريض يصارح قر[illegible] مستهل الكتاب بتفضيله المتنبى على سائر [illegible] العروبة قائلا « حديثى هو عن المتنبى، [illegible] شعرائنا على الاطلاق، كنت، وانا فى زهرة [illegible] وتباشير عهدى بالأدب العربى، ماخوذا [illegible] المتنبى فى شعره ... وشخصيته، وإذ [illegible] حرصت منذ ثلاثين عاما أن اكتب فصو[illegible] — نشر بعضها فى مجلة « العروبة » وبقى [illegible] مخطوطا — حاولت أن أجعل من اضمامتها [illegible] لدراسته، ولكن تبين لى — بعد — أني [illegible] تلك المحاولات كمن يتخبط فى الظلام فيتو[illegible] أكتاف الآخرين، هم مثله لا يكادون يتبينو[illegible] معالم الطريق.

« وأعرف الآن أنى كنت أتخبط فى [illegible] لأن اطلاعى آنذاك لم يكن يتجاوز عيون [illegible] الا الى بعض المختار من هنا وهناك لز[illegible] الشعراء ... معدودين، فما كنت الم[illegible] لابد لمن يتصدى لمثل هذا البحث من أ[illegible] من الاطلاع على وضع الأدب العربى ف[illegible] الرابع الهجرى، وماسبق القرن الر[illegible] شيات هذا الأدب وتطوره فى العصرين [illegible] والأموى وقبلهما .... لثلاثة قرون [illegible] بالشواهد حافلة بالتطورات، وما يتأ[illegible] كلها من جذور فى الشعر العربى القديم [illegible] من الفنون — فى العصر الجاهلى الذى [illegible] الاسلام بكوكبه الوهاج.

« كما ان اطلاعى كان نزرا بالنسبة الى [illegible] السياسى الذى كان راهنا فى البلاد ا[illegible] آنذاك ... على سعة أطرافها المترامية [illegible] الظروف السياسية التى نجم عنها [illegible] الوضع عبر الثلاثة قرون الأولى منذ ص[illegible]

« لقد كان أنسى بتلك المحاولة وأنا فى غرة ر وغرور الشباب ، ثم تبين لى – بعد لأى – هـــذا الشاعر العظيم انما حاول موفقا « أن ل شعره جمــاع ما مر باللفــة من تجارب مة وجديدة كان بعضها فى اعتبار أهل عصره ئب ، وبعضها عنــدهم حسنات ، نختلف فى مها معهم الآن » .

« وقد عنانى – منـــذ تبين لى ذلك – أن ح لنفسى ، قبـــل كل أحـــد ، لماذا نختلف ن وهم – فى هـــذا التقييم ، فهذا الذى انى أن أدرس الأصول الفنية التى ترتكز أذواقهم واستعرضها – بعد وزنها فى ميزان – على ضوء الأصول الفنية التى أصبحنا عليهـــا اليوم ، وكل هذا استلزم – كما – الاستنجاد بالتاريخ والاستعانة بالمعارف تئناس بالفنون ، والاستظهار بالآداب ، حتى عربية منهـــا ، لوضع الأمور فى نصابها ، القنـــاع عن وجه الحق بين طوايا هذه .

ثم أن المتنبى « فطرته العربية كانت أغلب ، الرغم من كل ما اخذه عليه الناس من حق أصـــدق صوت عربى أخذ من حضارتهم ة بنصيب بعد أن فطمته روح البادية » ح لى استجلاء كل هذه الا بعد أن خلعت سباب ، وركنت بى تجارب العمر الى وقار » .

ذه هى القصة الموجزة للأستاذ العريض ره المفضل أبىالطيب المتنبى ، ويسترسل العريض قائلا بعـــد ذكر هذه القصة تل المحققون محارة المتنبى بحثا وتنقيبا ، ـــا وتمحيصا ، ونقـــدا وتحليلا ، كما لم اوية فى شـــعره الا أثاروا غبارها لعين ، ووضـــعوا محتواها على المشرحة تحت ومع هـــذا بقيت جوانب من حيـــاته غامضـــة ، بخل بها الزمان على اقرب هده وما تلا من عهود ، فلم يفض بهـــا الى آذان أفراد من وراء ستار صفيق من والأوهام » .

ولا ينكر الأستاذ العريض قيمة بحوث القدماء فى أدب المتنبى مثل كتـــاب الموازنة والايضاح والوساطة واليتيمة والابانة والصبح المنبى ففيها جميعا مادة غنية للدارسين ، ولكنه يرى « انها لا تتعـــدى كونها مادة خامة لا تعين البـــاحث الا بقدر استعداده لاستخراج الجوهر منها بعد الجمع بين قراءاتهـــا ، وقيـــاس أشـــباهها على نظائرها ، والاستدلال باللمح الذى لا يكاد يدوم عندهم – فى ومضه – الا ثوان » .

وقد وقف الفصـــل الأول من الكتاب على الحـــديث عن « المتنبى بين شراحه وناقديه » وعنده ان هؤلاء الشراح – قديما وحديثا – جنوا على عبقرية المتنبى جنـــاية لا تغتفر من حيث لا يشعرون ، وهـــذه الجناية الخطيرة فى رأى الأستاذ العريض هى انهم « ظل وكدهم – خلفا عن سلف – أن يبينوا للناس ماذا يحاول الشاعر أن يقول ، أى أن يكشفوا بالجهد الجهيد مادة الشعر الخامة فى معانيـــه » وكان الواجب على هؤلاء الشراح – فى رأى الأســـتاذ العريض – « الذى يتمحلون له قصارى جهـــدهم هو أن يتبينوا لأنفسهم كيف خلص هذا الشاعر بحكم عروبته الأصلية ، من وراء هذا التراث الخام من المعانى الى الافضـــاء بدخيلة نفسه .. فى كل شعره ، ثم مدى توفيقه فى هذا الافضاء بها كاملة غير منقوصة والى أسماع من ترى ؟ لا الى الناس كلهم ، وانما الى « أمة » من الناس ، ففى ذلك – لا غير – سر عبقريته كلها » .

ومعجزة المتنبى البيـــانية كما يرى الأستاذ العريض ليست هى فى « ماذا » قال ، فهـــذا لا يتجاوز مادة شعره الخاصـــة ، وانما هى فى « كيف » أفضى بمـــا أراد ، فهـــذه الـكيفية – أو الطريقـــة أو أسلوب البيان – هى هى « روحه » من وراء تلك المادة » وهذا عنده ما كان ينبغى أن يتبينه الشراح فى ديوانه .

ويبدو لى أن الأستاذ العريض لا يفرق هنا بين وظيفة الشارح ووظيفة الناقد ، الا اذا كان يريد أن يطالب الشارح بأن يكون ناقدا ، وليس من الميسور فى جميع الحالات أن يجمع الشارح

بين القدرة على الشرح وكشف المعانى الدقيقة والقـــدرة على تذوق الشعر من الناحية الفنية والجانب البلاغى .

واذا كان شراح شعر المتنبى قد أساءوا اليه واستحقوا العقوبة فان ناقديه – فى رأى الأستاذ العريض – قد ظلوا يحسنون اليـــه على غير قصد منهم لأنهم كانوا يريدون به السوء والمهانة ، فقد قصروا نقدهم على مؤاخذته من ناحية اللغة فى مفرداتها أو فى ضـــمائر النحو أو التعسف فى الاعراب أو فى الولع بالغريب والتنطع فى الكلام وما الى ذلك من أشـــباه هذه العيوب ، ومرجع هذه العيوب فى رأى الأستاذ العريض الى ما أسماه « عنجهيـــة فن المتنبى » وتأثير نشأته البدوية ، وفريق آخر من ناقـــديه وحاسديه عمدوا الى مناقشته فى أصول معانيه ، وفئة اخرى من نقاده وجهت عنايتها الى ما اعتبرته فى شعره نكوصا عن الجادة كتعلقه بغموض المتصوفة وافراطه فى المبالغة حتى الاحالة ، ومن نقاده من عابوا عليه نزوعه الى طريق الفلســـفة ، ويشير الأستاذ العريض الى نقاد المتنبى المحدثين الذين تتلمذوا للغرب وعابوا على المتنبى تزلفـــه ومدائحه دون أن ينظروا الى طبيعة عصره ، ومنهم من اتهمـــه بالشعوبية ومن وســـمه بالجنون ، واطباق هؤلاء النقاد عليه من كل صوب أفاده لأنه « ترك معدنه الوهاج عاريا للعيـــان » على حد تعبير الأستاذ العريض .

والواقع أن شراح المتنبى كالواحدى والعكبرى وابن جنى واليازجى والبرقوقى قد بذلوا جميعا جهدا مشكورا فى تفسير غوامضه وتقريب البعيد من معانيـــه ولم يقصر بعضهم فى الاشارة الى الملابسات التاريخيـــة التى أحاطت بنظم بعض قصائده ومناســـباتها ، وقد استنفد الكشف عما أسموه سرقاته جهد أكثر نقاده ، وقد أسرفوا فى ذلك الى حد السخف والتجنى ، ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن نباته فى كتابه « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » فقد ختم ابن زيدون رسالته الهزليـــة التى تولى ابن نباته شرحها فى كتابه المذكور مستشهدا بقول المتنبى .

فمن جهلت نفســـه قـــدره
رأى غـــير منـــه ما

وعلق ابن نبـــاته على هذا البيت الرسالة بقوله « من نوادر المنقبين على المتنبى قول أحـــدهم انه سرق هذا حكاية ، وهى أن قصارا كان يعمل عل نهر ، وكان كل يوم يرى كركيا يجىء فـ الحماة دودا ويقتصر فى القوت عليه فرأ صـــقرا قد ارتفع فى الجو وانقض ع فاصطادها وأكلها ، فقال الكركى مالى الطيور كما يصطاد هذا الصقر وأنا أ جسما ، فارتفع فى الجو وانقض على حم وسقط فى الحماة فتلطخ رأسه وتلطخ يمكنه أن يطير ، فأخذه الصياد ورجع فاستقبله رجل فقال « ما هذا ؟ » فقا يتصقر » فسمع المتنبى هذه الحكاية فـ معنى هذا البيت » وعقب ابن نباتة : القصة بقوله « وهذا من نادر التعصب الرجل الفاضل المحسود » .

ويلاحظ القارىء ان ابن نباتة نظ الرواية من ناحية واحدة وهى ناحيـ على المتنبى ولم يعن بتحقيقها ، والقـ مختلقة ومصنوعة على الأرجح ، ولكـ لو كانت حقيقية لما أزرت بقدرة المتنبى على براعته فى استيحاء المعانى واستخـ والعظات من حوادث الحياة وتجارب وما الذى يعمله الفنان سواء كان شاعر أو كاتبا أخلاقيا أكثر من ذلك ؟ انه يسـ من تجاربه الخاصـــة وتجارب الانســ فالقصة المروية تشرف المتنبى وتنم عا فاذا كان الباعث على روايتهـــا أو التحامل كما يرى ابن نبـــاتة فهو الـ ينفع المحسود ويرفع من قدره ، والعلمـ والكتاب والفلاسفة جميعهم يعتمدو المشـــاهدة ودقة الملاحظة والافادة وتجارب غيرهم من الناس .

ويرى الأســـتاذ العريض أن ا الدنيا وشغل الناس » لسبب جد

ب الأدب العربي جميعها تركزت فيـــه
ذروتها عنـــده ، وهو من أجـــل ذلك
الشعراء بحق » .

نقد بعد ذلك فصلا عن نشأة المتنبى ويشير
تـــلاف الرواة فى نشأته وحقيقة نسبه
ه الى كتاب فيه أشراف العلويين حيث
.وس العربيـــة شعرا ونثرا ولغة واعرابا
ملازمة الوراقين وصحبته للأعراب فى
، وفى رواية الخطيب البغدادى أن أباه كان
بعيـــدان السقاء ، ويذكر الأستاذ العريض
نتور عمر فروخ عثر مصادفة فى قاموس
ادى على هذا النص ، وهو « ان عبدان
بالكسر لقب والد المتنبى » وقد استخلص
، ان والد المتنبى كان طويل الأطراف دقيقها
شبه بعيدان السقاء ، وهى العيدان أو
التى تنصب ليقام عليها السقاء ، ويبرر
د الأستاذ العريض ما ذهب اليه الأستاذ
شاكر من أن المتنبى علوى النسب ، وهى
، مسألة تحتاج الى مزيد من التحقيق .
، الباب الثانى من الكتاب يتحدث الأستاذ
، عن طريقة المتنبى فى نظم الشعر وهو
، المتنبى كان « اذا تعرض لنظم معنى من
التى لا صـــلة لها مباشرة بظرف القول
ن اعتباره التزام الشـــاعر لطبيعة فنه
ه وجرده من كل ملابساته العينية تجريدا
، له البيان كل الاختزال » .

حين أنه « اذا اقتضى ظرفه الماثل أن يعبر
ء يختلج فى صـــدره لحينه ارسل الكلام
ــ أو فى حكم المرتجل ــ ملتبسا بشعوره
.

نو يطبق هذه القاعدة على شعر المتنبى كله
عكسا ، فهو يتعمل ويختزل فى البيان بغية
اد والتجريد من الملابسات اذا كان ما يقوله
: له بظرفه الزمنى ، أما اذا أراد التعبير
ء اقتضت ظروف حياته الافضاء به فانه
الكلام مرتجلا أو فى حكم المرتجل ملتبسا
ه الحى .
وهـــذان الخيطـــان من غزله الدقيق »
ـهما فى قصائده جميعها ، فاحد هـــذين

الخيطين ملون بشـــتى عواطفه ، والخيط الآخر لا لون له غير البياض « لأنه ومض العقل المحض ، ويقدم الأســـتاذ العريض امثلة كثيرة من شعر المتنبى لدعم وجهة نظره .

وميزة حكم المتنبى فى رأيى أنها دائما مستمدة من تجاربه ومشاهداته ، وهو لا يسوقها اليـك بطريقـــة تعليمية مثل ناظمى الحكم على طريقة صالح بن عبد القدوس أو ابن الوردى وانما يأتى بالحكمة فى ســـياق وصف الموقف أو رواية الحادثة ، من امثلة ذلك وصفه المشهور للأســـد الذى يختمه بقوله .

أنف الكريم من الدنيئة تارك
فى عينـــه العـــدد الكثير قليلا
والعار مضاض فليس بخائف
من حتفـــه من خاف مما قيلا

وهـــذه هى طريقة كبار الشعراء العالميين فى الاتيان بالحـــكمة خلال الموقف التمثيلى الذى يصفونه أو القصـــة التى يروونها وهى طريقة شكسبير وجيتى وغيرهم فى الاتيان بالحكمة على ألســـنة أبطالهم فى المواقف المناسبة والمشاهد الملائمة ، ولست أرى هناك داعيا لهذه التفرقة بين الخيط الأبيض والخيط الملون .

وفى الكتاب فصول أخرى عن تقصيد القصائد عند المتنبى ودلالة المكرر من شعره وصراحته الجارحة ودقة ملاحظته والاستقصاء الفنى فى التمثيل ويختم الكتاب بفصـــل موجـــز عن ما للمتنبى وما عليه .

وكتاب الأستاذ العريض يمزج النقد بالتاريخ مزجا مستساغا ويتناول أدب المتنبى بعطف ظاهر وحماسة محببة ، ويكثر من الاستشهاد بشعر المتنبى بطريقة تحمل القارىء على اعادة النظر فى الكثير من قصائد المتنبى ، وينثر الكثير من الآراء القيمة والملاحظات الطريفة ، وهو جدير بأن يلقى العناية والتقدير من قراء الأدب العربى ، والمتنبى فى طليعة شعراء العروبة وقد يكفى هذا وحده للعناية بأدبه وبكل ما يكتب عنه .

على أدهم

الثورة فى أفريقيا

تأليف : ك . مادهوبانيكار

ترجمة : روفائيل جرجس

مراجعة : الدكتور محمد محمود الصياد

الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة

٢٤٤ ص ١٧ × ٢٤ الثمن ١٥ قرشا



من الهند كانت أول اشعاعة من الفكر الشرقى تلقى أضواءها على أفريقية ففى أفريقية استقبل غاندى حياته وفيها بدأ كفاحه الخالد وفى أدران التفرقة العنصرية التى ماناها فى صدر شبابه فى جنوب أفريقية سمت روحه الى آفاق سامقة من الصبر والتضحية والتجرد والطهارة والكفاح السلمى المقدس لتطهير النفس من وقر الاستعلاء ، وتخليص الروح من حمى الخوف والطمع وتحرير الوطن من قيد الاستعباد .

ومن الهند كان أول نداء للحياد بين عملاقين يتصارعان فى ميدان السياسة ومذهبين يصطدمان فى عالم الفكر وطريقين للحياة يختلفان ولا يلتقيان أبدا .

وفيها أثمرت النظرة الشرقية تلك الدراسات الموضوعية العميقة عن الأمبريالية والاستعمار والسيطرة الغربية وثورات التحرير القومية والتحرر من آثار الماضى وقيوده وتقاليده البالية ، فقد عانت الهند من الاستعمار والتفرقة والتفاوت الطبقى والتمايز العنصرى ما لم يعانه شعب من الشعوب ، وخاضت صامدة غمار ثورة ظافرة امتدت الى كل جوانب الحياة الهندية على يد غاندى وخليفته نهرو ، وغدت وحيا لكتاب الهند ومفكريها ، فلا أذكر فيما قرأت من كتب واستوعبت من دراسات ، بما فيها الدراسات التى حمل فيها الشيوعيون على الاستعمار ، دراسات اتسمت بالعمق والاصالة والمو كدراسات الهنود فى هذا الميدان . .

ومن هؤلاء الكتاب الهنود ، ك مادهوبانيكار ، « آسيا والسيطرة الغربية » وكتابنا هذا الذى نس « الثورة فى أفريقية » فعلى كثرة ما أخرجت الم السنوات الأخيرة من كتب عن أفريقية لا ترى من بين يلم بمشاكل تلك القارة كما يلم بها هذا الكتاب قارة خرجت أخيرا من غبش الظلام الذى ران عليه حتى ظنها الناس قارة لا تاريخ لها ولا حضارة تكشف البحوث الجديدة عن بقايا مجتمعات حضارية جذورها القديمة ولها طابعها الخاص مهما حملت البداوة والطوطمية ، ولم تكن حضارة افريقية جميعا طوطمية تقوم على السحر والكهانة ، بل قام حضارات تأثرت على فترات متفاوتة من التاريخ بـ الشرقيين الادنى والأقصى ، فمما لا شك فيه أن حضـ امتدت الى بعض بقاع أفريقية فى الزمن القد الحضارتين الهندية والعربية قد تركتا بعض لمـ أواسط وشرق افريقية وان الاسلام قد ضرب بجذو حتى وصل الى الغرب منها ، ولكنها فى الوقـ شهدت فيه قيام مجتمعات حضارية متقدمة الى حـ نراها تنطوى على مجتمعات بدائية تلوذ بالغابة القبيلة ، وقبيلة الغابة غير قبيلة الصحارى أو حيث تنطلق الحياة على رحابها مع انطلاقة البرية بينما تطويها الغابة فى حيز ضيق من العزلة الاجـ وبينما تتطور المجتمعات البشرية فى الصحارى والـ

الغابة حتى يصيبها الفناء أو يقعد بهـــا الجمود
ام .
بقية قارة عجيبة دون شك ، فقد شهدت بقاع
اشعاعة للفكر الانسانى وقامت فيها أعرق حضارة
خ ، حضارة مصر وحضارة قرطاجنة ثم كانت بقاع
أكثر اتساعا وشـــمولا تعيش فى عصور ما قبل
حتى كشف الانسان الحديث عن مغاليقها وفض
وبدأ العالم يسمع عنها وعن شعوبها ، فانثالت
ول القوية تنهب خيراتها وتسترق بنيها ، وغدت
فى فترة من فترات التاريخ الحديث أكبر سوق
، ولكنها ظلت كنزا مغلقا لا يلقى اليه المستعمر
جاءه منهـا دون جهد أو انفاق ، اذ كانت كنوز
قصى تخلب لبه ، وتلهيه عن التطلع الى استثمار
ستثمارا عريضا شاملا ، الا ما تند به المناجم من
هب والماس التى يفوق ربحها كل ما ينفق عليها
ت .

ظلت افريقيـة قارة يدخرها الاستعمار للمستقبل
ستنفد خامات الشرق الأقصى ، فحين بدأت عروشه
« جنوب آسيا — كما يقول بانيكار — برزت
افريقية فانتقل زراع البن والشاى من الهنـــد
ى كينيا وشرع زراع المطـاط يجرون تجاربهم فى
وافادت افريقية الفرنسية والبلجيكية من الخبرة
بها المزارعون فى الهند الصينية واندونيسيا ،
فان الفرنسيان اللذان لعبا دورا بارزا فى تنمية
ند الصينية (بنك الهند الصينية وبنك باريس
لمنخفضة) ، يتدخلان فى افريقية الاستوائيـــة
غربية الفرنسية على نطاق واسع » .

فريقية التى دخلت فى حوزة الاستعمار فى مدى
لزمن ، اخذت تتحرر من ربقته بأسرع مما وقعت
وكان دخولها فى حوزته أشبه بخروجها منه ،
برلين عام ١٨٨٤ اتفقت دول الاســـتعمار على
ـــارة ، وباتفاق الأمم المتحدة على تصـــفية
اخذت دولها تستقل وتحقق كيانها القومى ،
، فترة وجيزة بدايتهـا الحقيقية عام ١٩٥٨ —
يا التى حققت استقلالها عام ١٩٥١ وتونس التى
١٩٥٤ — ففى ذلك العام ، عام ١٩٥٨ ، نالت
ستقلالها كما تحقق اتحاد مالى فى نطاق الرابطة
وفى عام ١٩٦٠ ، نالت سبع عشرة دولة استقلالها ،
كل من تنجانيقا ، وأوغندا ، ورواند يورندى ،
والجزائر عام ١٩٦٢ ، وفى العام التالى استقلت كينيا بعد أن خاضت معركة عنيفـــة للتحرر قادها شيخ زعماء أفريقية جومو كينيـــاتا ولم يعد فى أفريقية من دول تخضع للاستعمار غـــير بضع دول فى حوزة الاســـتعمار البرتغالى والانجليزى فى طريقها هى الاخرى الى التحرر .

وقد حرص « بانيكار » فى كتابه هذا أن يستهله بتعداد دول أفريقيـــة والدولة التى كانت تستعمر كلا منها وتاريخ استقلالها ونوع الحكم فيها .

ولا يصور الكتاب كما يبدو من اسمه « ثورة افريقية » ثورة بالمعنى المفهوم للثورات ســـواء كانت ثورة سياسية او اجتماعية او اقتصادية ، كما يصور نهضة قارة تتفاعل فى بوتقتها عناصر عديدة هى التى تناولها المؤلف فى فصول الكتاب فهناك الاهمية الجـــديدة للقارة العذراء ، تلك الاهمية التى تبوأتها بعـــد الحرب الثانية ، لا باعتبارها منتجا ضخما للخامات التى تحتاجها الدول الاستعمارية بعد أن تقلص نفوذها فى آســـيا ولـــكن باعتبارها ذات أهمية استراتيجية بالغة ، فهى بالنسبة لبريطانيا مركز بديل للشرق الاوسط ولقنـــاة السويس تعبر فوقه الى المناطق الحساسة التى تتمركز فيها مصالحها الامبراطورية ، وكانت تأمل أن تتخـــذ من كينيا قاعدة جديدة للتحكم فى البحر الأحمر تغنيهـــا عن قاعدة السويس وتبقى على اتصالها بالشرق ، وهى بالنسبة لفرنسا تمثل عمقا استراتيجيا للدفاع عن الوطن ، اذا ما تعرض لنوع من الاجتيـــــاح العسكرى الذى تعرض له عام ١٩٤٠ ، فقد استطاع ديجول بعد أن سقطت فرنســـا فى يد النـــازية ان يقود معركة التحرير من الخارج ، فأفريقية لفرنسا كسيبيريا للروسيا تستنزف جهد الغزاة .

ثم كانت الحرب الثانية فأكدت الاهمية الجديدة لقارة أفريقيـــة — كما يقول بانيـــكار ص ١٦ — عندما أصبحت المصـــدر الكبير للحبوب الزيتيـــة والكاكاو واليورانيوم والقصدير ، هذا فضلا عن اكتشاف البترول فى الصحراء الكبرى والكميات الهائلة من الحديد والنحاس والمنجنيز والبوكسيت وغيرها من المعادن الأخرى التى توجد بكميات وفيرة فى كل أنحـــاء القـــارة ، مما أدى بدوره الى نمو الاستثمارات المالية والاقتصادية فى أعقاب الحرب الثانية نموا لم تره أفريقية من قبل .

وادت تلك الاهمية الجديدة للقارة الى تشابك المصالح الحيوية للدول الكبرى والى انتهاج كل منها سياسة تراها كفيلة بتحقيقهـــا . فنزلت اليها أمريكا بقوتها الماليـــة

والاستثمارية الضخمة تستثمرها فى تعدين النحاس والذهب والماس والحديد الخام والتنقيب عن البترول ، وشاركها راس المال الانجليزى مشاركة فعالة وشهدت المستعمرات الانجليزية القديمة كروديسيا ونيجيريا وجنوب أفريقية اتحاد الشركات الانجلو أمريكية تنزل بكل قواها الى ميدان لم تلق اليه مثل هذا الاهتمام من قبل وان لم تغفل قط عنـه .

ولم يقف تحالف راس المال الامريكى على مشاركة راس المال الانجليزى وحده بل قفز به الى مشاركة رءوس الاموال الفرنسية والبلجيكية فى غينيا والكنغو وجابون والكميرون واتحدت بذلك المصالح الغربية على نظرية واحدة وهى « ان افريقية هى قارة المستقبل » او هى كما يقول « جافوروف » (ص ١٧) آخر ميدان للرأسمالية المعاصرة .

ولم تغفل روسيا من هذا الميدان وقد ظلت بنجوة عنه طويلا فولجته على طريقتها التقليدية التى ترمى الى هدم العالم الرأسمالى وتقويض أركانه ولكن بأسلوب جديد ارتآه خروشوف وخالف به أسلوب سلفه الراحل « ستالين » – ويرى بانيكار أن حاجز الشرق الأوسط كان حصنا يقوم دون التغلغل الشيوعى الى افريقية اما وقد تقوض هذا الحصن فلم يعد هناك ما يمنع روسيا من ولوجه ، والحقيقة ان الشرق الاوسط لم يكن حاجزا منيعا امام التغلغل الشيوعى فى افريقية ، فقد كان من اليسير أن تعبر قوته دون أن تلقى بالا اليه ، ولكن اهتمام روسيا بافريقية وكان اهتماما قديما لم ينفذ استراتيجيته الايجابية فى افريقية الا بعد أن ظفرت دولها بالاستقلال ولم تعد هناك عوائق استعمارية تقف دونه ، وكانت ترى أن دول افريقية اذا اتخذت موقف الحياد بين الشرق والغرب – وهو ما أشار اليه بانيكار – فان ميزان القوى سينقلب ضد العالم الغربى .

ونستطيع أن نلخص طبيعة الصراع بين الغرب والشرق فى أفريقية فى عبارة موجزة وهى أن الغرب يحاول أن يقيم امبراطورية نامية لاستثماراته الضخمة ، وان الشرق يعمل جاهدا على تقويض تلك الامبراطورية قبل أن تقوى وتتركز ، وقام عمله على أساس علمى لعل أجدر ما يشار اليه منه هو اهتمام روسيا بدراسة السلالات البشرية فى أفريقية ودراسة الثقافة الافريقية حتى تستطيع ان تنفذ الى قلوب الافريقيين وعقولهم فى سهولة ويسر ، وكانت جمعية الصداقة السوفيتية الافريقية وفروعها فى غينيا والسودان ومالى والسنغال وتوجولاند هى القلا[...] للسياسة الروسية فى افريقية .

ولم يعد الاهتمام بأفريقية مقصورا على كـ[...] والغرب فقد أخذت الجمهورية العربية المتحدة تلقـ[...] فى القارة ، وليس اهتمام الجمهورية العربية المتـ[...] على السودان ونيجيريا وافريقية الفرنسية بانيكار – حيث يراه قائما على الرباط الدينـ[...] الأزهرية والروح الاسلامية المصرية فحسب ، التى تربط مصر بأفريقية صلات تاريخية وجغرافـ[...] وقد أشار كتاب « فلسفة الثورة » الى تلك الـ[...] العوامل التى تحتم على مصر الاهتمام بأفريقـ[...] « ايمكن أن نتجاهل أن هناك قارة افريقية شا[...] ان نكون فيها ، وشاء ايضا ان يكون فيها اليوم حول مستقبلها ، وهو صراع سوف تكون آثاره سواء أردنا او لم نرد ... وليس عبثا أن يـ[...] شمال افريقية ، ويطل من على القارة السوداء فيها اليوم أعنف صراع بين مستعمريها البيض وأ[...] من أجل مواردها التى لا تحد » .

فاهتمام الجمهورية العربية المتحدة بأفريقية حواجز الدين واللغة والعنصر الى المصير الـ[...] الحرية والرخاء فى القارة التى أخذت دولها الـ[...] قمة الأحداث فى عالم ينوشه صراع مذهبى حاد و[...] وقر الخوف من الدمار الذى يشيعه سباق التـ[...] الرهيب .

وقد برزت وحدة افريقية فى اجتماع دول [...] الذى عقد بالقاهرة اخيرا (أكتوبر ١٩٦٤) فأكـ[...] وحدة نضالها المشترك فى سبيل السلام والرخاء

وثمة دولة أخرى تبدى اهتماما بأفريقية حيث تربطها من قديم الزمان صلات وثيقة بشرق[...] كما أن لها تجارة رائجة – هى تجارة المنسوجات بغرب افريقية .

ولها ايضا فى كفاحها السلبى ضد الاستعمار على يد غاندى ما تتخذ منه بعض دول القارة الا[...] لعلاقاتها السياسية والقومية ومن الافريقيين مذهب عدم العنف اقتداء بغاندى من أمثال بوانيى » فى ساحل العاج و « أبو ايتا » فى نيجـ[...]

ومن مظاهر اهتمام الهند بأفريقية انشاء الدراسات الافريقية بالهند وانشاء خط ملاحى هندية يربط بين غرب افريقية والهند .

أشار بانيكار دون افاضة الى اهتمام اسرائيل بأفريقية الأمل الذى يراودها فى خلق تعاون مثمر بينها وبين أفريقية يؤمنها ضد الدول العربية ، ولعله فى طبعته ة مشيرا الى فشل الجهود التى تبذلها اسرائيل فى أفريقية والى تأييد الدول الافريقية بالاجماع فى مؤتمر الانحياز بالقاهرة لحقوق عرب فلسطين .

ليست تلك الأهمية الجديدة لقارة أفريقية هى العنصر د الذى يتفاعل مع ذاته داخل البوتقة الافريقية فهناك أخرى كما قلنا هى التى تناولها هذا الكتاب وجعلها عه ، وهذه العناصر حين تتفاعل بعضها مع البعض ل لورة كما قلنا أو كما يتراءى لقارىء عنوان الكتاب تمثل نهضـــــة أو هى عمليـــة تطور بكل ما يحيط ض والتطور من عوامل مساعدة وأخرى غير مساعدة ، ب أن نسميها مشـــكلات أو عوائق تقف أمام التطور ض فهذا أبعـــد ما يكون عن ذهن المؤلف فانه على ن لا يرى فيما يراه البعض من تلك المشكلات عائقا الأخرى عن النهوض والتطور ، ولا يحب أن يجردها نت نفسه من طبيعة المشكلة ، وانما يبرز ــ وهو ــدو واضحا فى كل صفحات الـكتاب ــ كيف طور بون تلك المشكلات بحيث غدت دعامة للقوة بدل ن معولا للهدم أو حتى دعامة للجمود والتأخر . فهناك الدولة القومية وهناك حيوية التغير ، تلك الحيوية درة على التغير التى أراد المترجم أن يعبر عنهـــا الانجليزى فدعاها « ديناميكيـــة التغير » وهنـــاك ، الزعامة والحزبية ومشكلات الدولة النامية التى ى سياسة الدولة وانماط الحكم ، كما أن هناك نداء الأفريقية الذى يصب فى القارة من الخارج ويترك لبعيـــدة بين المثقفين والزعماء ورجـال الحـكم فى ، ولكل من هذه المشكلات طابعه الخاص فى كل طابع يميل الى التكيف مع الواقع الذى فرضـته ث التاريخ فى الماضى ، وتطور الكيان القومى الذى فى كثير من الأحيان قوى خارجية تجاهلت الى حد واجز اللغة والاقليم والعنصر ولم يشأ الافريقيون تلك الحواجز دون نهوضهم واستكمال كيانهم القومى الاقتصادى والاجتماعى .

ـو أن المؤلف قد رأى فى ذلك العرض الشامل للصورة ة على تعدد أشكالها ما يحول دون ابراز الفكرة التى ولها ويعمل على تثبيتها فى الأذهان ــ فكرة اصرار على اثبات وجوده ، اثباتا يقوم على السير الجاد فى ركب التقـــدم العالمى ــ فعمل على اعطاء صورة جزئية تتمثل فى دولة أفريقية نامية ، واختار غينيا نموذجا لتلك الصورة التى يحاول أن يبرز فى اطارها مشكلات القارة عامة ، وكيف تعمل دولة بعينها على تحدى تلك المشكلات والتغلب عليها والاستجابة لعوامل التحـــدى التى فرضها القدر ويفرضها المصير المشترك للقارة العذراء على شعوبها ودولها النامية الجديدة .

وتتعدد مشكلات القومية والدولة القومية فى افريقية بتعدد المؤثرات التى فرضت عليها وحددت مصيرها فى الوقت الحاضر على الاقل ، اذ أن عناصر التحدى لتلك المشكلات ما زالت قائمة تلعب دورها على المسرح وقـــد تؤدى فى المستقبل القريب او البعيد الى تغيير شكل الدولة الاقليمى أو اللغوى أو العنصرى او الاقتصـــادى او جميعها معا ، فالكميرون التى قسمها الانتـــداب فى أعقاب الحرب الأولى الى قسمين ، أحدهما تحت الانتداب البريطانى والآخر تحت الانتداب الفرنسى » ثم رات بريطانيا تقسيم منطقة انتدابها فى الكميرون تيسيرا للادارة ، الى الـكميرون الشـمالى والكميرون الجنوبى ، وادى هذا الوضع الى تمزيق وحدة الكميرون الاقليمية كما ادى ايضا الى نمو تقاليد متباينة فى كل أقليم منها ، فضلا عن حاجز اللغـــة الذى يفصل بين الـكميرون البريطانى والـكميرون الفرنسى ، بالرغم من كل هذه العوائق مجتمعة يتطلع الكميرون جادا وفى اصرار بالغ الى تحقيق وحدته الاقليمية حتى يمكن القول بأن هـــذا الاصرار على الوحدة هو الذى دفع « بفونشا » الذى يؤيد حزبه سياسة الوحدة ، الى الحكم .

وثمة صـــورة أخرى لمشكلة الدولة القومية فى أفريقية لا تتمثل فى وحدة الاقليم كما هى فى الكميرون ، بل تتمثل فى وحدة الشعب « الأيوى » الذى قسم بين ساحل الذهب واقليم توجولاند الالمانى ، ثم جاءت الحرب الأولى فأدت الى تقسيم توجولاند الالمانية بين فرنسا وبريطانيا دون أن تضم شعب « الايوى » كله الى احـــد القسمين . وحين اختارت توجولاند البريطانية الاتحاد مع غانا بأغلبية ضئيلة ، تفاقمت مشكلة شعب الأيوى فى غانا وهى مشكلة شعب ينشد وحدته الاجتماعية فى غانا أو فى توجولاند .

ويبدو جوهر المشكلة فى هاتين الصورتين كامنا فى الصراع النفسى بين الولاء للاقليم والولاء للعنصر وهو الذى دعاه بانيكار خطـــأ بالولاء للمجتمع (ص ٢٨) فى حالة شعب الأيوى والولاء للقبيلة ذلك النوع من الولاء الذى يتزعمه « أوولوو » فى غرب أفريقيـــة ، فالولاء للمجتمع والولاء

للقبيلة يقومان على أسس نفسـية واحدة تتميز بالولاء للمجموعة البشرية التى ينتمى اليها الفرد ، سواء كانت تلك المجموعة البشرية قبيلة أو شـعبا ، فالولاء للشعب يستمد جذوره القديمة من الولاء للأسرة والعشيرة والقبيلة وحين ينمو هـذا النوع من الولاء القبلى بتطور المجتمع البشرى من الأسرة الى العشيرة والقبيلة والأمة يتطور معها ولاء الفرد حتى يصبح فى النهـاية ولاء للامة التى ينتمى اليها ، والمعروف ان المجتمع القبلى يعوق تطور الأمـة واكتمال الكيان القومى وان كان بانيكار لا يرى هذا الرأى ، ويرى أن الولاء للعشيرة دعامة أقوى للقومية فان النيجيرى - كما يقول ص ٣٠ - يمكن أن يكون « وطنيـا افضـل لو استطاع ان يفخر بأنه ينتمى الى شعب « اليوروبا » او « الأيبو » أو « الهوسـا » . وتلك حقيقـة لا جدال فيها ، غير ان الولاء للعشيرة أو الولاء للعصبية كما يدعوها ابن خلدون اذا طغى على الولاء للأمة كان عائقا دون نمو القومية واكتمال الكيان القومى ، وبقاء المجتمع القبلى نفسه يعوق نمو المجتمع القومى .

ومشكلة الولاء المحلى أو الولاء للقبيلة فى أفريقية ، لا يمكن أن تبقى وليس فى قـدرتها أن تعوق اكتمال الكيان العام للدولة القومية ، فان تقدم أفريقية الحقيقى لا يتحقق دون اضطلاع دولها القومية بالاعبـاء التى تفرضها حتمية التطور والتطلع الى مستقبل أفضل .

وتحاول دول أفريقية رغبة منهـا فى القضاء على النزعة القبلية ، او تعلقا بأسطورة ترى فيها سندا لكيانها القومى او تمجيـدا لماضيها ، أن تبحث عن فـكرة الدولة أو الامبراطورية فى ماضيها كما فى « غانا وغينيا ونيجيريا ومالى وربما فى الكونغو » حيث تقوم الفكرة على بعث احدى امبراطوريات غرب أفريقية ، او تقتنص ظلا لزعامة قديمة تمـدها بالولاء للوحـدة القوميـة كما ترى غينيا فى « سيكوتورى » حفيـد سامورى ذلك المكافح العظيم الذى ظهر فى غرب أفريقية ، أو حتى تتعلق بماض حديث حيث تتمسك الكميرون بوحدة الأراضى التى كانت قبلا مستعمرة المانيـة .

وتبرز بين حين وآخر فكرة الحـدود السياسية التى خلقها الاستعمار وهى ما تثيرها أحيانا بعض الدول الافريقية كتوجو ويسكت عنها بعضها الآخر كغانا والتى يرى فيها بانيكار مثارا لعدد من المشاكل القومية التى واجهتها أوربا فى الماضى يمكن أن تودى بأفريقيـة الى الحرب كما أودت بأوربا من قبل .

وتمر أفريقيـة فى الوقت بمرحلة حاسمة من مراحل التغير الشامل يثير عددا من المشاكل امام دولها النامية ، فالنظام النقدى والهجرة الى المدن وقيام طبقة سوفسطائية من الافريقيين المتعلمين خلقهـا الاستعمار وتعلقت بأذياله واتخذت من المدن التى أقامها الاستعمار سكنا ومقاما وكان لها دور بارز فى تحديد العلاقة بين الوطنيين والحكومات الاستعمارية فكانت المعاهدات التى أبرمتها بريطانيا وفرنسا فى داخـل البـلاد من صـنعها وبرز بعض أفرادها فى ميادين الادارة والمهن وتزعم بعضها الآخر حركة المساواة بين الأفريقيين والبيض ، كل هـذا كان بادرة من بوادر التغير العميق الذى يشمل القارة وخاصة فى المستعمرات البريطانية والفرنسية فى غرب أفريقية .

وهناك هـذا التغير الهام فى الميدان الاقتصادى عندما ادخل الافريقيون زراعة الكاكاو الى ساحل الذهب وغرب نيجيريا وساحل العاج والكميرون الفرنسى ، وكان من المقدر له أن يلعب الدور الأول فى التغيير فى غرب أفريقية لولا أن زراعته لم تدخل تلك الاقاليم فى وقت واحد ، ولم يكن الكاكاو هو الغلة الوحيدة فهناك أيضا زيت النخيل الذى قام عليه الرخاء فى شرق نيجيريا وداهومى والموز فى الكميرون وغينيا والبن فى ساحل العاج والكميرون وغينيا والقطن فى السودان وشمال نيجيريا وأدى ذلك الى قيام طبقة من التجار والوسطاء الذين يعملون فى تسويق تلك المنتجات ، وطبقة أخرى من العمال الزراعيين الذين يعملون فى تلك المزارع . والى جانب هذه الطبقة من العمال الزراعيين نشأت طبقة جديدة من العمال الصناعيين فى المدن فأصبح المجتمع وهو يتكون من هـذه الطبقـات الجديدة الى جانب الطبقات القـديمة التى تحكمه وتمارس سلطتها التقليدية فيه من الأسر المالـكة وزعماء القبائل ورؤساء الاقسام والفقهاء والمطببين ممن يمكن ان نعدهم سـادة المجتمعات القديمة وما زالوا يتمتعون بالسطوة والنفوذ فى بعض اجزاء غرب أفريقية وخاصة فى المستعمرات البريطانية التى اخـذت بسياسة الحـكم غير المباشر فقد اضعف الحكم الفرنسى المباشر من شأنها فى المستعمرات الفرنسية . الا أن هذه الطبقات القديمة المتميزة قد أخذت تفقد الكثير من نفوذها وجاهها امام تقدم الديمقراطية واهمال الحـكومات لها . وادى اهمال تلك الطبقـات القديمة الى نوع من الصراع بينها وبين الحكومات كما أدى بها الى الاقبال على التعليم حتى تستطيع عن طريقـه الابقاء على بعض مظاهر كيانها التقليدى بما يتيحه لهـا التعليم من تقـدم فى الميدانين السياسى والادارى .

الا ان التعليم قد خلق بدوره مشكلة أخرى من مشكلات التغير التى تمر بها القارة فالمتعلم الذى اعتنق المسيحية قد سيطرت عليه نظرة الازدراء لتقاليده القديمة والاستعلاء على أبناء جلدته من الوثنيين وغير المتعلمين .

وشمل التغير حياة المرأة فقد أخذت تتحرر من قيود المجتمع القديمة وتسلك طريقها حرة مستقلة تمارس حقوقها وتتمتع بكيانها المستقل حتى غدت منهن من تفضل الحياة الحرة على قيود الزواج وأقمن الجمعيات لحمايتهن من غوائل المستقبل ، وبدأن دورا باهرا فى ميدان العمل والسياسة وظهر فيهن أمثال « مدام كوليبالى » فى ساحل العاج و « مدام رانسم كوتى » فى نيجيريا ، وكان لهن دور بارز فى حركة التحرر الافريقى .

ومن القوى البارزة التى تلعب دورها على المسرح الافريقى ما يتمتع به الزعماء والأحزاب السياسية من قدرة على مواجهة التغيير وتحدى المشكلات القديمة والطارئة على السواء بالرغم من حداثة ظهورها ، فحزب التجمع الديمقراطى الافريقى لم يظهر الى الوجود الا عام ١٩٤٥ وتلاه حزب الميثاق الشعبى عام ١٩٤٧ ، فجماعة العمل عام ١٩٥١ .

ولكن الزعامة الافريقية بالرغم من حداثتها قد استطاعت ان تثبت وجودها وساعدها على ذلك قصر الفترة التى خاضتها مع الاحزاب التى استنفدت اليهاق كفاحها لتحقيق الاستقلال .

ويستعرض بانيكار فى هذا الفصل نشأة كل زعيم والظروف التى حملته الى الزعامة ومواهبه الشخصية وقدرته على القيادة ومظاهر الاختلاف بين الزعماء لا فى المنهج والاسلوب فحسب بل من حيث السمات الشخصية والمقومات السياسية ، كما يستعرض نشأة الاحزاب وتطورها والدور الذى قامت به قبل الاستقلال والذى تضطلع به بعد الاستقلال .

ومن المشكلات التى تواجهها الأحزاب بعد الاستقلال تعدد الاتجاهات بين اعضائها فطالما كان هدفها القومى قائما على تحقيق الاستقلال بقيت وحدتها متماسكة ، أما وقد تحقق الاستقلال فان الاتجاهات الفرعية تسفر عن نفسها سواء نمت تلك الاتجاهات عن ميول اقليمية أو طائفية أو مذهبية ثم أن هذه الاحزاب وقد وجهت كل قواها وكفاحها لتحقيق الاستقلال اهملت ان تعد لنفسها برنامجا تحققه لبناء الدولة فى عهد الاستقلال .

والمشكلة التى تواجهها الدولة فى بنائها الحديث بادية فى قلة المتعلمين الذين يضطلعون بالوظائف الادارية ونقص الكفايات الفنية القادرة على اقامة البناء الاقتصادى والاجتماعى للدولة ، والحاجة الى وجود صف ثان من الزعماء يضطلع بالحكم والقيادة فى المستقبل .

وينتهى بانيكار من هذه الفصول الخمسة الأولى برسم الاطار العام للمشكلات التى تواجهها دول أفريقية بعد الاستقلال ليبدأ الحديث فى الفصل السادس من الجامعة الافريقية فيتناول نشأة الفكرة وكيف جاءت الى أفريقية من الخارج حيث ابتدعتها ودعت اليها « ذرية العبيد المستوطنين فى الولايات المتحدة وجزر الهند الغربية الفرنسية والبريطانية » ثم يشرح اتجاهى تلك الدعوة على يد رائديها « جارفى » و « دى بوا » فقد رأى جارفى أن مشكلة الزنجى الامريكى لا يحلها غير خلق كيان مستقل للزنوج وهداه تفكيره الى تهجير زنوج أمريكا الى افريقية لتكون لهم دولة تنشأ فى المستقبل ، أما « دى بوا » فقد أدرك ان مشكلة الزنجى الامريكى يجب حلها فى أمريكا ذاتها على أساس المساواة بينهم وبين البيض .

ويمضى بانيكار فى تتبع فكرة الجامعة الأفريقية وامتدادها الى جنوب افريقية وتأثيرها بين الافريقيين وخاصة المثقفين منهم ، والمؤتمرات العديدة التى قامت فى اطار الفكرة حتى كان مؤتمر مانشستر الذى عقد عام ١٩٤٥ وفيه ظهر « نكروما » و « جومو كينياتا » ولم يكن مؤتمرا افريقيا بقدر ما كان مؤتمرا للزنوج فقد غابت عنه الدول العربية وفيه تبلورت الدعوة الى تحرير افريقية ، ثم كان مؤتمر الشعوب الافريقية فى أكرا عام ١٩٥٨ وفيه اجتمعت شعوب القارة جميعا بشقيها الزنجى والعربى .

ويرى بانيكار أن شخصية « جومو كينياتا » كانت الشخصية البارزة المسيطرة فى مؤتمر مانشستر ويعتقد أن « كينياتا » هو القادر وحده على جمع الأحزاب الافريقية المتناحرة وقد بقيت روحه ترفرف على مؤتمر أكرا بالرغم من غيابه عنه .

وفى مؤتمر أكرا انطلقت الدعوة الى اطلاق سراح « كينياتا » و « بن بيلا » كما برزت الوفود العربية فى تأييد استقلال الجزائر ونجح الوفد الجزائرى فى تلطيخ سمعة فرنسا بالوحل .

ويرى بانيكار أن حلم الجامعة الأفريقية سراب خادع ولكن دول افريقية ستصبح دون شك بأجمعها قوة كبيرة فى الامم المتحدة ، مع أن لها من القوة ما للكتلة الاسيوية وكتلة أمريكا اللاتينية ، ونستطيع أن نضيف الى ما قاله

بانيكار ، أن عمل الكتلتين الأسيوية والأفريقية معا سيجعل منهما فى الامم أعظم قوة فى الميدان الدولى وهو ما بدت بوادره فى مؤتمر عدم الأنحياز الذى عقد بالقاهرة أخيرا . -

ويفرد بانيكار الفصول الثلاثة الأخيرة لدراسة غينيا ويبدأ بشخصية الزعيم سيكوتورى وكيف بدأ « يتألق فى سماء أفريقية » عام ١٩٥٨ ، وكيف كانت نشأته وكيف بدأ نشاطه السياسى بالعمل فى حزب التجمع الافريقى حتى اصبح سكرتيره العام وهو فى السادسة والعشرين من عمره وكيف استكمل ثقافته السياسية فى فرنسا حيث درس الماركسية والتنظيم الشيوعى ، ثم يعرض لنا صورته من خلال عمله وتحليله لشخصيته وعقائده الفكرية والسياسية التى تسيطر على تفكيره ، وصفاته التى تميز سلوكه وخلقه ويرى أن الكرامة هى الصفة البارزة التى تسيطر على خلق سيكوتورى وسلوكه .

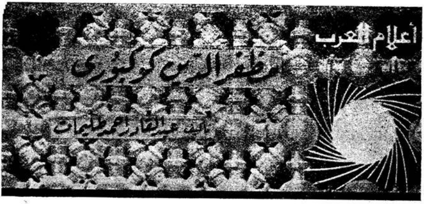
والحزب فى غينيا هو السلطة النهائية ويبدأ تكوينه من القاعدة حيث تنبت خلاياه وتشكيلاته فى كل المدن والقرى والأقسام ولكل منها تمثيلها النيابى للجماهير وقد استطاع الحزب بهذا أن يوفق بين العناصر المختلفة من « السوسو » و « الفولانى » و « المالكى » التى تعمل جميعا فى اتساق وتجانس والحزب بالنسبة للدولة هو ما يحتل مكان الصدارة ويقوم تشكيله على اربع مجموعات تمثل : الفلاحين ، والعمال ، والشباب ، والنساء ، وتحتل النساء مكانة مرموقة فى الحزب بما يقمن به من جهود وما يؤدين من خدمات نظير ما نلنه من حق المساواة .

واستطاع الحزب أن يحقق ديمقراطية الحكم بسيطرته على الجهاز الادارى للدولة ابتداء من القرية الى اعلا وحدة ادارية . فقد اخذ الحزب بنظام الحكم الشعبى المحلى فالقرية يديرها مجلس يختار رئيسا للقرية وهكذا فى المستويات العليا ، فمصدر السلطة هو الشعب وهو القاعدة التى تبدأ منها كل التنظيمات الادارية والحزبية لتصب فى مستويات أعلى .

ويمضى الكتاب فى شرح التطوير الجديد لنظام الادارة والحكم وتعديل نظام الضرائب والنظام القضائى ويختتم فصوله بالمكانة التى حققتها غينيا فى المجتمع الدولى بعد ان اختارت الاستقلال والانفصال عن الرابطة الفرنسية فكانت أول دولة داخل المجموعة الفرنسية تختار هذا الطريق مما حمل عليها فرنسا ، وحمل غينيا بدورها على أن تواجه تحدى فرنسا وتنجح فى دعم كيانها المستقل بل وفى تغيير طبيعة الرابطة الفرنسية وكان أعظم نجاح حققته غينيا هو صمودها فى مواجهة المحنة التى اجتازتها عقب الاستقلال حتى احتلت مكانها المميق بها فى المجتمع الدولى كدولة افريقية مستقلة متحررة نامية .

والكتاب كما قلنا دراسة عميقة شاملة لمشاكل قارة تواجه مستقبلها الجديد فى حيوية وتفتح غير انه قصر بحثه على غرب أفريقية ولم يشر من بعيد او قريب الى مجموعة هائلة تسكن القارة الأفريقية وتحتل نطاقها الشمالى هى المجموعة العربية . ولا يعرف عنوان الكتاب بالانجليزية فقد اهمله المؤلف واهمله الناشر على غير ما يجرى به العرف الحديث فى الترجمة من الاشارة الى عنوان الكتاب بلغته الاصلية ، ولا نستطيع مع جهلنا بالعنوان أن نحدد مصدر الخطأ فى عنوان الكتاب اهو خطأ المؤلف او خطأ المترجم ، كما انه لم يعرض الا فى اشارات خاطفة لمشاكل وسط وجنوب وشرق افريقية واحرى بالكتاب أن يسمى « ثورة غرب أفريقية » .

الدكتور حسين فوزى النجار



يتصف تاريخ الشرق الأدنى فى القرن الثانى عشر للميلاد بالاضطراب وعدم الاستقرار بسبب ما كان هنـاك من حروب مستمرة بين المسلمين والصليبيين ؛ فضلا عما أصاب الخلافة العباسية من ضعف أدى الى ظهور عدد كبير من القوى المتنافسة على حسابها . وفى ذلك الجو المضطرب ظهر المجال واسعا لظهور عدد كبير من المغامرين من أمراء المسلمين الذين حققوا لانفسهم مكانة اما لنشـاطهم المحلى على حسـاب القوى الاسلامية المجاورة واما لمساهمتهم فى جهاد الصليبيين . وقد اختار الأستاذ عبد القادر أحمد طليمات أحـد أولئك الأمراء — هو مظفر الدين كوكبورى أمير أربل — ليكتب عنه كتابا يحمل رقم ٣٢ فى سلسلة أعلام العرب التى تصدرها المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر .

والقـارىء لـكتاب مظفر الدين كوكبورى لا يسعه سوى أن يشهد بالجهد الكبير الذى بذله مؤلفه فى جمع المادة واستخراج الحقائق من بطون المراجع ثم تنسـيقها وعرضها عرضا شيقا فى أسلوب سهل جذاب . ولكن الى جانب هذه المزايا العديدة التى يزخر بها هذا الكتاب ، فان لنا عليه بعض انتقادات نجملها فيما يلى : —

أولا : أتى المؤلف بمقدمة حاول فيها أن يثبت عروبة مظفر الدين ، وقال فيهـا ان العروبة لا ترتبط بالجنس أو الأصل ، وقال ان هناك من اعترض على نشر كتـاب عن الظاهر بيبرس فى سلسـلة اعلام العرب بحجـة أنه ليس عربى الأصل . والواقع أنه لم يحدث أن أحدا اعترض على نشر كتاب عن الظـاهر بيبرس فى سلسلة أعلام العرب ، كما أن مؤلف كتاب الظاهر بيبرس أتى بمقدمة شافية حدد فيها معنى العروبة ؛ وهى المقدمة التى يبـدو أن مؤلف كتاب مظفر الدين استقى منها بعض أفكاره .

ثم ان المؤلف عقد مقارنة غريبة بين الظاهر بيبرس ومظفر الدين كوكبورى ، وجعـل من الرجلين ندين متعـادلين ، لأن كلا منهما مسلم العقيدة دافع عن الاسلام وتكلم العربية . فهل نفهم من هذه المقارنة أن كل رجل مسلم العقيدة ، عربى اللسان ، دافع عن الاسلام ، يعتبر علما من أعـلام العرب . وهل قام الأمير مظفر الدين كوكبرى بدور قيادى يدانى الدور الذى قام به السلطان الظاهر بيبرس فى الجهاد والدفاع عن الاسـلام ؟ لقد فاتت المؤلف حقيقة هامة هى أن مظفر الدين كان أميرا صغيرا حكم امارة صغيرة ، وانه فى مشاركته فى الجهاد كان تابعا لا متبوعا وكان مأمورا لا آمرا ؛ فى حين كان بيبرس حاكم دولة واسـعة مترامية الأطراف ، وصاحب سياسة بعيدة الأهداف فى الجهاد ، وأنه كان يجيش الجيوش ويخـرج لقتـال المغول حينا والصليبيين أحيانا ، وأنه عندما كان يخرج للجهاد لا يفعل ذلك بوصفه أميرا من جملة الأمراء بل بوصفه زعيما لحركة الجهاد . ولذلك استحق الظاهر بيبرس أن يكون علمـا من أعلام العرب

والتاريخ ، وحرص الناس أمدا طويلا على التغنى بسيرته التى غـــدت ركنا من أركان التراث الشعبى لعصره . فهل بلغ مظفر الدين شيئا من تلك الأهمية ، وهو الأمير الذى ربما لم يسمع عنه كثيرون ؟ .

ثانيا : حاول مؤلف كتاب مظفر الدين أن يأتى بجديد ، فنادى برأى له خطورته عندما عرف العربى بأنه « كل من اعتنق الاسلام وهو دين العرب » . وهذا الرأى يبدو فى نظرنا شاذا خاطئا لا ينبغى أن نتركه دون الرد عليه . فالدين لم يكن فى يوم من الأيام شرطا من شروط العروبة . وقد وجـــد فى قلب شـــبه الجزيرة العربية – قبل ظهور الاسلام وبعده – كثيرون من أهل الكتاب ، ولم يقل أحـد أنهم ليسوا عربا . وفى تاريخ الدولة العربية الاسلامية منذ القرن السابع للميلاد عاش أهل الكتاب جنبا الى جنب مع اخوانهم المسلمين وشاركوا معهم فى رفع لواء الحضارة العربية .

واذا نحن تمشينا مع المؤلف وقلنا ان كل من اعتنق الاسلام فهو عربى ، فماذا يكون موقفنا اليوم من الايرانيين والأتراك وأهل باكستان وهم جميعا مسلمون ؟ هل نعتبرهم عربا وهم أبعد ما يكونون عن روح العروبة وأحاسيسها ؟ الواقع أنه مع اعترافنا بأن العرب هم الذين حملوا لواء الاسلام ، الا أننا نحب أن نؤكد دائما أن العروبة فى الماضى والقومية العربية اليوم ، لا تشترط دينا من الأديان ولا تنافى عقيدة من العقائد السماوية ، وانما تقبل على الأديان جميعا بنفس روح التسامح التى اشتهر بها الاسلام .

ثالثا : وربما كان أولى بمؤلف كتاب مظفر الدين أن يهتم بتوضيح المقصود بالأعلام بدلا من محاولتــه تكرار المقصـــود بالعرب . فالسلسلة التى صـــدر فيها الكتاب تحمل اسم « أعلام العرب » ، وقد سبق الأستاذ طليمات من قام بتحـــديد معنى العرب وبقى تحديد المقصود بالأعلام . فالعلم فى اللغة هو الجبل وهو الراية ، والمقصود بأعلام الرجال زعماؤهم ومشاهيرهم . فهل هـــذا التعريف ينطبق على مظفر الـــدين كوكبورى ؟ اننا نعترف مع المؤلف بأن مظفر الدين كان رجلا طيبا صالحا ، وانه شارك فى الجهاد ، ولكن هل كل رجل مسلم طيب شارك فى الجهاد يعتبر من أعلام العرب ؟ واذا وضعنا مظفر الدين فى درجة أعلام العرب ، ففى أية درجة نضع أمثال صلاح الدين الأيوبى وهو أيضا رجل مسلم طيب تزعم حركة الجهاد فى أخطر مراحلها ؟ .

رابعا : يبدو باستعراض كتاب مظفر الدين أن مؤلفه عانى حرجا كبيرا بسبب قلة المـــادة التاريخية ، فعمد الى الاستطراد والى أن يلصق بالموضوع كثيرا من الاضـــافات وأن يتطرق الى عديد من التفصيلات الثانوية التى لا تخدم التاريخ بقدر ما تفسد عرضه . وقد حاول المؤلف أن يبرر سلوكه فى المقدمة ، فقال ما نصه « واذا كان هـــذا الكتاب مخصصا للحديث عن مظفر الدين فانه يتحـــدث أيضـــا عن أسرته : والده وأخيه ، ذلك أنه لا يستساغ الحديث عن مظفر الدين دون التعريف بأسرته ، خاصة وأن والده كان أول من حكم مدينة أربل ، ثم حكمها أخوه زين الدين يوسف ، ثم حكمها هو من بعده . فضـــلا عن أن والده وأخاه شاركا فى أحداث العصر ، فكان لوالده دور كبير فى ظهور دولة كبيرة هى دولة بنى زنكى فى الموصل والشام ومصر . فمن الضرورى اذن أن نفرد فصـــلا خاصا عن والد مظفر الدين وأخيه وما أدياه لعصرهما من خدمات .. » .

هذا ما يقوله المؤلف ، وهو فى الواقع منطق غريب لا يمكن أن يقره عليه المنهج العلمى فى كتابة التـــاريخ . ومن يدرى فربما استباح المؤلف لنفسه – لو وجد مادة فى المراجع التى استقى منها – أن يكتب لنا فصولا عن عمات مظفر الدين وخالاته .

والواقع اننى آخـــذ على المؤلف استطراده وجنوحه بين حين وآخر الى الابتعاد عن الخط الرئيسى للموضوع الذى كرس نفسه لعلاجه . فالمؤلف لا يكتفى بالكلام المسهب عن والد مظفر الدين وأخيـــه ، وانما استباح لنفسه ان يطيل الكلام عن نشـــاط نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبى ، حتى اذا ما انقضت ستون صفحة

من الكتاب ، بدأ الفصل الثالث بعنوان « نشأة مظفر الدين » . وكنت أنتظر بعـــد ذلك أن يستقيم منهج المؤلف ويلتزم الخطوط العريضة للموضوع ، ولكن ظاهرة الاستطراد والرغبة فى الحشو ظلت تغلب على منهجه ؛ فهو مثلا ينتهز فرصة اقصاء مظفر الدين عن حكم أربل وانفراد مجاهـــد الدين بحكمها لينتقل دون سبب الى الكلام عن مجاهد الدين وينسى أن موضوع الكتاب مظفر الدين وليس مدينة أربل ومجاهد الدين ؛ وبعد عدة صفحات يتكلم فيها المؤلف عن مجاهد الدين يتذكر موضوعه الأساسى فيقول فى ص ٧٥ « ثم نعود الى مظفر الدين فنقول » ؛ وهو بهذا يذكرنى بمؤرخى العصور الوسطى عندما نجد أحدهم – مثل النويرى السكندرى صاحب كتاب الالمام – يستطرد ويخرج عن الموضوع وبعد عدة صـفحات يكتب عنوانا بالخط العريض « نعود الى ذكر صاحب قبرس الملعون ! » .

خامسا : جعل المؤلف عنوان الفصل السادس من كتابه « مظفر الدين والحروب الصليبية » . وقد حاول المؤلف فى هذا الفصل ان يظهر مظفر الدين كوكبورى فى صورة بطل بارز من أبطال الحروب الصليبية . ولكن يبدو أنه لم يجد مادة فى المراجع تساعده فى تحقيق غرضه ، فما كان منه الا أن ذكر لنا ملخصا مسهبا لحروب صلاح الدين ضـــد الصليبيين وهو يفترض فى كتابته – ويريد من القارىء أن يفترض معه أيضا – أن مظفر الدين لابد وأنه أسهم بنصيب كبير فى جميع حروب صلاح الدين التى شنها ضد الصليبيين . والغريب أن المؤلف يذكر فى صفحة ١٤٩ من كتابه ما نصه « واذا كان المؤرخون لم يذكروا اسم (مظفر الدين) صراحة الا فى بعض المعارك الهامة ، الا أننا نرجح ترجيحا يكاد يصل الى حد اليقين أنه اشترك فعلا فى معظم المعارك التى دارت بين صلاح الدين والصليبيين . وسبب ترجيحنا أن المؤرخين كثيرا ما يذكرون أن صلاح الدين كان يستدعى (عساكر الشرق) كلما عزم على القيام بحرب طويلة أو اثارة معـارك هامة ليشتركوا معه فى القتال ، والمؤرخون يعنون بالشرق اقليم الموصل والجزيرة التى تقع فيهـا حران والرها اللتان يملكهما مظفر الدين !! » .

هذه هى حجة المؤلف ، وهى حجة واهية فى نظرنا ، لا يصح أن تجعله يجزم الى حد اليقين بأن بطله مظفر الدين اشترك فعـلا فى معظم المعارك التى درت بين صلاح الدين والصليبيين . واذا كان صـــلاح الدين كثيرا ما أستعان بعساكر الشرق ، واذا كانت امارة مظفر الدين تقع ضمن عديد الامارات الاســلامية التى تقع فى أقليم الشرق ، فليس معنى ذلك أن مظفر الدين بالذات أسهم فى حروب صلاح الدين بالقدر الضخم الذى أراده له المؤلف والذى جعله يسرد حروب صلاح الدين ضـــد الصليبيين كما لو كان بطلها مظفر الدين . ولو قام مظفر الدين بنشاط غير عادى فى المعركة الصليبية لما وجد هناك سبب يجعل المؤرخين المعاصرين يهملون ذكره بين فينة واخرى بل ان المؤلف يناقض نفسه فيعترف فى صفحات الكتاب التالية (ص ١٧٩) بأن صلاح الدين طلب أكثر من مرة من مظفر الدين مساعدته ، ولكن مظفر الدين (تقاعس) عن تلبية ندائه .

ولم يكد المؤلف يتشـــم أن مظفر الــدين وأخاه زين الدين اشتركا فى معركة عـــكا حتى انتقل الى وصف المعركة بالتفصيل – كأن هذين الأخوين هما أبرز بطلين فيهـــا – ؛ ثم استباح المؤلف لنفسه أن ينقل نصين طويلين نقلا حرفيا عن ابن شداد وابن الأثير فى وصف معركة عكا ؛ وحسب المؤلف أن اسم مظفر الدين ورد فى بساطة وتواضع ضمن عشرات أســماء الأمراء الذين أسهموا بقواتهم فى المعركة تحت زعامه صــلاح الدين البطل الحقيقى للمعركة . ولا يخفى علينا أن حشر النصوص المطولة على هـــذا النحو فى كتابة التاريخ أمر غير سليم لا يتفق ومنهج البحث الحديث .

سادسا : تكلم المؤلف فى الفصل الثالث من كتابه عن أخلاق مظفر الدين وسجاياه ، فوصف الكثير من أخلاقه مثل البساطة وحبه للفقراء والتصدق عليهم ... ثم عاد المؤلف فى الفصل السابع ليتكلم عن مآثر مظفر الدين فتعرض مرة اخرى لأخلاقه وحبه للخير واحسانه على الفقراء والمحتاجين .. وكان يحسن الكلام عن هـــذه النواحى فى فصل واحد بدلا من التكرار والدوران فى اجزاء مختلفة من الكتاب حول نقطة واحدة .

سـابعا : أراد المؤلف فى الفصل السابع الخاص بمآثر مظفر الدين أن يتكلم عن الخدمات التى أداها ذلك (العلم) لمدينـة أربل ، فقال ما نصه (ص ١٨٩) « وقبل أن نتحدث عن الخـدمات التى أداها مظفر الدين لمدينتـه أربل وسكانها فى الانشـاء والتعمير ، نذكر نبذة عن جغرافية أربل وتاريخها القديم !! » . وهكذا نسى المؤلف أنه يكتب كتـابا عن مظفر الدين لا عن مدينـة أربل ، وأنه اذا تعرض لمدينة أربل فى بعض أجزاء كتابه فيجب أن يكون ذلك بالقدر الحدود الذى يتطلبه سـياق البحث . اما أن يورد المؤلف صفحات عن أربل منذ أيام الاسكندر ، ثم ينتقل الى سبب تسمية المدينة باسم أربل ، ويورد آراء الجغرافيين والمؤرخين المسلمين فى هذا الصـدد ، ثم يتكلم عن أهمية أربل فى العصور القديمة والوسطى ، وعن الممالك التى قامت فى منطقتها قبل الميلاد حتى حكمها الساسانيون ، ثم دخلت المسيحية بعد ذلك وصارت فى القرن الخامس مركزا لبطريركية كبيرة ... ثم دخلت تحت الحـكم الاسـلامى ابان حركة الفتوح الاسلامية .. هذا كله لا يتفق والمنهج السليم فى كتابة التاريخ . لقـد تشككت عند قراءة هـذا الجزء فقلبت غـلاف الكتاب لأتأكد من عنوانه واننى أقرأ كتابا عن أمير حكم مدينة أربل فى فترة محدودة لا عن الجغرافية التاريخية لمدينة أربل . ان هناك فارق بين كتابة كتاب عن بونابرت وكتابة كتاب عن باريس ، وهناك فارق بين تأليف كتاب عن الملـكة فكتوريا وتأليف كتاب عن مدينـة لندن .

وبعد ، فان هذه المآخذ على كتاب مظفر الدين كوكبورى لا ينبغى أن تقلل اطلاقا من الجهد الكبير الذى بذله مؤلف الكتاب ، الأستاذ عبد القادر أحمد طليمات ، فى استقصاء الحقائق واستخراجها ومقارنتها . ومن السهل على أى باحث أن يكتب كتابا كبيرا عن علم بارز حقيقى من أعلام العرب لأنه سيجد المادة التاريخية اللازمة له متوفرة فى المراجع الأصلية ، ولكن ليس من السهل على أى باحث أن يكتب كتـابا فى نحو مائتين وخمسين صفحة عن أمير صغير مثل مظفر الدين كوكبورى ، أرى شخصيا اننا نظلم التاريخ ونظلم العرب اذا اعتبرناه (علما) من أعلام العرب .

الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

الحرب والمدنية

تأليف : أرنولد توينبى
ترجمة : احمد محمود سليمان



الناشر : مشروع الألف كتاب
بالاشتراك مع دار النهضة العربية
١٩٢ ص ١٧×٢٤ الثمن ١٣ قرشا

يثير اسم توينبى بالنسبة للقارىء العربى أحاسيس طيبـة من غير شك لأنه يرتبط لدى الغالبية منهم بموقفه من قضية عرب فلسطين وتأييده الواضح لها كذلك فانه مما يدعم هـذه الأحاسيس الطيبة موقفه الأخير من قضية الجنوب العربى ودعوة بلاده الى ترك الجنوب العربى وشأنه يقرر مصيره بحرية ويتمتع بالاستقلال الذى أصبح ضرورة من ضرورات العصر الحديث ـ ضرورة تفرضها المرحلة الراهنة من مراحـل تطور المجتمع الدولى .

وقد بدأ الاهتمام بكتابات توينبى يتزايد حتى لدى المثقفين العاديين وانعكس هذا الاهتمام على بعض المتخصصين فبـدأت تترجم بعض آثاره وقد قام الأستاذ فؤاد شبل الوزير المفوض بوزارة الخارجية بترجمة مختصر التاريخ فى ثلاثة أجزاء

كما قامت هذه المحاولة التى نعرض لها الآن والتى تتمثل فى ترجمة « الحرب والمدنية » .

والواقع ان توينبى لم يؤلف كتابا بهذا العنوان « الحرب والمدنيـة » وانما تنـاثرت آراؤه فى موضوع الحرب وصـلة الحرب بالحضارة فى مؤلفه الضخم « دراسة التاريخ » والذى يقع فى اثنى عشر جزءا منها عشرة أصلية وجزء يعتبر كاطلس تاريخى والجزء الأخير هو مختصر للأجزاء كلها . وقد قام بكتابة أو بجمع المختصر الذى ترجمه الأستاذ فؤاد شبل — قام بجمعه الأستاذ سمرفل كما قام بجمع الـكتاب الذى نعرض له الآن السير البرت فور . وقـد تم جمع هـذا الكتاب أو اقتباسه فى وقت لم تكن أجزاء كتاب « دراسة التـاريخ » كلهـا قد اكتملت بل كان قد ظهر منه ستة أجزاء فقط .

والفكرة العامة التى يدعو اليها توينبى فى هذا الكتاب وفى دراسته التاريخية كلها أو الخيط الأساسى الذى يجمع أفكاره الرئيسية هو أن الحرب هى السبب الأساسى لاندثار الحضارات وانهيـارها . كانت الحرب هى سبب انهيار الحضارة الأشورية وكانت هى أيضا سبب اندثار الحضارة الاسبرطية ولا تزال هى السبب الحاسم الذى يهـدد الحضارة الغربية بالزوال ان هى استمرت تجعل من التقدم فى الفنون الحربية — فنون الدمار — غايتها وهدفها .

والواقع أن الحرب ما زالت — على تعبيـر توينبى نفسـه — احد الوسائل الأساسية التى استعملها الانسـان ليقوض دعائم قيمـه الاجتماعية والروحيـة خلال عصور التاريخ المتعاقبة .

واذا كانت الحرب هى الوسـيلة الأساسية للقضاء على القيم الحضـارية فان الحضارة بدورها كانت سببا للحرب . ان قيام حرب من الحروب يقتضى بالضرورة وجود نوع من التخطيط الفنى من أجل الحرب ويقتضى أيضـا زيادة فى الموارد عن الحـدود الدنيا اللازمة للحياة حتى تستعمل هـذه الموارد الزائدة فى الاسـتعداد الحـربى . والتخطيـط الفنى وزيادة المـوارد لا يمكن أن يتحققا الا فى ظل حضارة من نوع ما وكلما كانت الحضارة أكثر تقدما كلما كان التقدم الفنى أكثر وضـوحا وكلما كانت زيادة الموارد أكثر فاعليـة ومن ثم كلما كانت الحرب أكثر ضراوة وعنفا .

والحرب عند توينبى شر لا خير فيه وما يقال عن أن الحرب تظهر فضـائل الرجال وشجاعتهم هو قول مغلوط اذ أن ما يقـال عنه من فضائل الجنود فى الحرب —كالشجاعة والتضحية وما الى ذلك — يصـاحبه من الرذائل ما يكاد يطمسه ويقلبه الى عكسه .

ولـكن اذا كانت الحرب شرا ووبالا فليس معنى ذلك أن نترك لمن يشنون الحروب فرصة السيطرة على العالم وتوجيهه والسيطرة عليه . ليس معنى مقتنا للحرب ان نستسلم لمن يشنون علينا الحرب بل يجب أن يواجه هؤلاء وأن يهزموا لتتمكن البشرية من السير الى الأمام . ان الحرب فى هذه الحالة أفضل من سلام يفرض على الدنيا بالقوة . ويشير توينبى بذلك الى أن الوقوف فى وجه هتلر والانتصـار عليه حربيـا أفضل من الاستسلام له وترك العـالم كله له لقمة سائغة يفرض عليها سلما قهريا ليس له من معنى السلم الا مظهر هادىء وجوهر كئيب .

وتوينبى كما قـدمت يربط بين التطور الحضارى والتطور الحربى ولذلك فهو يرى أن اسلافنا كانوا أحسن حظا منا لأن نموهم الحضارى لم يكن يجعل فى أيديهم ما يضعه فى أيدينا نمونا الحضارى الآن من وسائل ما حقه من وسائل الدمار والرعب .

ولما كان التطور الحضارى فى العالم الغربى قد وصل الى قمته — أو هو وشيك الوصول — فان توينبى يتوقع — مع خشية وتحذير — أن تكون الخاتمة المروعة للحضارة الغربية وشيكة الوقوع أيضـا وعندئذ قد يحل نوع من السلام ولكنه سلام باهظ الثمن .

وفى الفصـل الأول من كتـاب « الحرب والمدنيـة » عبارات لتوينبى يلبس فيها مسوح الأنبياء والرهبـان ويحذر الحضارة الغربية من

مصيرها المفزع اذا هى ظلت فى طريقهـــا الذى تسلكه ويدعوها الى العودة الى الحظيرة الالهية ضارعة من أجل الخلاص والسلام .

ولن نستعرض فصول الكتاب التسعة بطبيعة الحال كما حاولنا فى السطور السابقة أن نستعرض المقدمة والفصل الأول فالأفكار الأساسية التى تتردد فى فصول الكتاب كلها واحدة وان اختلفت الأمثلة التى يضربها فى هـــذا الفصل عن ذاك الفصل . فهو فى الفصل الثالث يتكلم عن اسبرطة وكيف استجاب الاسبرطيون للتحدى الناجم عن صغر مساحة الأرض الصالحة للزراعة بالنسبة لعدد السكان المتزايد وكيف انتهى الاسبرطيون الى أن مواجهة هذا التحدى انما تكون فى اكتشاف وفتح أراض جديدة عبر البحار ومن هنا اتجه الاسبرطيون الى التوسع الاســـتعمارى وكانت الحرب وسيلتهم الى ذلك .

وفى نهـــاية الفصل يتحـــدث عن تدهور « أسبرطة » نتيجة هذا الانغماس فى الحرب مع عوامل أخرى مساعدة ويرى توينبى أن الدول المحاربة أو التى تبنى حياتها على أساس الحرب ـ كما كان شأن اسبرطة ـ تصلح للبقاء طالما هى فى حالة حرب ولكنها تسير الى الدمار بمجرد أن تنتهى هذه الحالة اذ أن السلام الطويل يتسبب فى جعل معدنها يفقد صلابته وهكذا فقد هدمت اسبرطة نفسها بنفسها بطريقة حتمية .

وفى الفصل الرابع يتحدث توينبى عن دولة آشور ويبدأ هذا الفصل بفقرة من العهد الجديد تمثل عظمة آشور ونهايتها معا وتجرى هـــذه الفقرة على النحو الآتى « حينما يحفـظ القوى داره متسلحا (هكذا فى الترجمة) تكون أمواله فى أمان ولكن متى جاء من هو أقوى منـــه فانه يغلبه وينزع ســـلاحه الكامل الذى اتكل عليه ويوزع غنائمه » .

وقد أفرطت آشـور فى النزعة الحربية وفى اعتدادها بمقدرتهـا العسكرية وانهكها هـــذا الافراط وأصابها الاعتداد الزائد بنوع من الغرور وصاحب هذا وذلك ثورات متعددة ضد النظـام الحاكم وانتهى الأمر بآشور كما انتهى باسبرطة من قبلها الى الانهيار الكامل والدمار .

وتتكرر هذه الصورة بصفة مستمرة ، نزعة عسكرية .. استعداد حربى ضخم .. حروب متعددة متوالية .. انتصارات فى البداية .. شيخوخة وضعف ثم انهزام واندحار .

ان الحرب فى حد ذاتها هى جرثومة الدمار الكامنة فى كيان الدول المحاربة . وان النزعة الحربية ـ عند توينبى كما يبين من اتجاهه كله ـ هى أشد أسباب انهيار المدنيات المتعاقبة واكثرها شيوعا وقـد كانت هـــذه النزعة على اى حال هى سبب سقوط المدنيات العشرين التى تعاقبت خلال الخمسين قرنا الماضية . ان النزعة الحربية تؤدى الى تداعى المدنية لأنها تجعل وحدات العالم فى صراع يؤدى الى أن يصبح الكيان الاجتماعى العالمى كله وقودا لهذا الصراع .

وان اهتمام الدول والمدنيـات عموما بهذه النزعة الحربيـــة يؤدى الى اهتمامهـا بالفنون الحربية دون غيرها ويؤثر هذا الاهتمام بطبيعة الحال على سائر الفنون الأخرى تأثيرا من شأنه أن يجعلها تتأخر وتنحط وهكذا يصبح تقـــدم هذه المدنيات فى الحقيقة تقدما أعرجا اذ أنه تقدم فى مضمار واحـــد فقط هو مضمار الأساليب الحربية والتقدم فى هـذا المضمار وحده يعده توينبى مظهرا من مظاهر التدهور الحضارى .

وفى الفصل التاسع والأخير من الكتاب الذى يجعل توينبى من عنوانه خلاصـــة لفلسفة فى موضوع الحرب يتحـــدث توينبى عن « فشل المخلصين بالسيف » ويستعرض توينبى هؤلاء المخلصين الحربيين منذ فجر التاريخ الى وقتنا الحاضر . وبرغم ما شاهده العالم من دمار ورعب فى الحربين العالميتين الاخيرتين فان العالم مع ذلك ما زال يرقص على حافـــة الهاوية . ويبدو أن توينبى يربط بين مستقبل السلام فى العالم وقيام تنظيم دولى فعال يستطيع أن يحافظ على هذا السلام المنشود مما يتهدده من اخطار .

ويروى لنا توينبى حادثة كان لها أثر عميق على تفكيره فى موضوع الحرب وما يؤدى اليـه

من انهيار الحضارة . والواقع ان هذه الحادثة ذات الدلالة العميقة قد يمر عليها كثيرون غير توينبى ولا تثير فى أنفسهم ما أثارته فى نفسه الواعية التى تمقت الحرب وتتطلع الى السلام .

وقعت تلك الحادثة فى بريطانيا وفى مدينة لندن على وجه التحديد وكان ذلك أبان الحرب العالمية الأولى عندما صدر أمر عسكرى بالاستيلاء على مبنى وزارة التربية لتحل فيه مصلحة من مصالح وزارة الحربية وذهبت وزارة التربية تبحث لها عن مكان تقيم فيه مؤقتا الى أن وجدت لها مأوى فى أحد المتاحف القديمة .

هذه الحادثة أثرت أثرا بعيدا على توينبى لأنها حملت الى ذهنه الواعى دلالة عميقة .

مبنى عام أقيم من اجل دراسة الحياة وتطويرها وتحسينها يستولى عليه لتقام فيه دراسة تهدف الى القضاء على الحياة !! .

يقول توينبى « لا يمكن لقارىء أن يقصر عن ادراك انه حينما تخلى وزارة التربية والتعليم وتعطى لدراسة الفنون الحربية فان التحسن فى أساليبنا الحربية الغربية الذى يشترى بمثل هذا الزمن مرادف لدمار مدنيتنا الغربية .

هذا هو مضمون كتاب « الحرب والمدنية » أردنا أن نعطى القارىء خلاصة مجملة لما يضمه من آراء المؤرخ الكبير .

والشىء الجديد بالنسبة لهذا الكتاب هو الفكرة التى قام عليها أساسا . فهذا الكتاب ليس من تأليف توينبى مباشرة وانما هو عبارة عن تجميع لآرائه فى موضوع الحرب وقد انتشرت هذه الآراء فى مطولاته عن دراسة التاريخ مما لا يستطيع معه المثقف العادى أن يحيط بها وتقديمها له على هذه الصورة المجمعة البسيطة أمر يستحق التقدير .

واننا لنرى شيئا قريبا من ذلك فى تلك المحاولة التى قام بها الأستاذ طاهر الطناحى مع فقيد الأدب العربى الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد عندما نشر كتاب « أنا » وكتاب « حياة قلم » فى سلسلة كتب الهلال وضم بين دفتيهما أبحاثا ومقالات للأستاذ الكبير تجمعها وحدة الموضوع والغرض . وهو اتجاه مشكور نرجو أن يتبع بالنسبة للعقاد ولغيره من المفكرين العالميين والعرب على حد سواء .

وبقيت ملاحظة أخيرة عن الترجمة وانى لأسمح لنفسى أن أقول ان الترجمة لم تكن قط فى مستوى الكتاب . فقد كان أسلوب الترجمة فى كثير من الحالات ركيكا ضعيفا يعجز عن أن يعبر عن الفكرة الأصلية ولو أردت أن أضرب لذلك أمثلة لوجدت الشىء الكثير الذى يضيق عنه هذا التقديم لأننى سأجد نفسى عندئذ مضطرا الى اعادة فقرات بأكملها هنا لأبين وجه الضعف فيها ويكفى أن أشير الى هذه الصحائف على سبيل المثال لا الحصر « ص ٥٢ ، ٦٠ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٦٢ » ففى هذه الصفحات وفى كثير غيرها أمثلة لضعف الترجمة عن المستوى الذى كان يجدر بمثل هذا الكتاب بل أمثلة لضعف مستوى الترجمة عموما . بل ان الترجمة لم تخل من أخطاء لغوية ذلك فضلا عن الأخطاء المطبعية الكثيرة التى استدرك بعضها ولم يستدرك أغلبها .

ومع ذلك كله فان هذا الكتاب حقيق أن يقرأ وأن يهتم به لانه حقيق أن يعدم قضية السلام .

الدكتور يحيى الجمل

ڤولتير

نص

تأليف: جوستاف لانسون
ترجمة: الدكتور محمد غنيمي هلال
مراجعة: الدكتور حسن شحاته سعفان

الناشر: مشروع الألف كتاب
بالاشتراك مع مطبعة أطلس
٢٤٥ ص - ١٤×٢٠ سم

يذهب بعض النقاد الى القول « بأن القرن الثامن عشر كان قرن ڤولتير ، كما كان القرن السابع عشر قرن لويس الرابع عشر » . ويعلق الكاتب الكبير اندريه موروا على هذه العبارة بقوله : « ان هذا قول لا مراء فيه ، ففي قرن يتصف بالبرجوازية النقادة ، كان ڤولتير برجوازيا نقادا ، وفي قرن شبت فيه الخلافات الدينية ، كان ڤولتير عالما كل العلم بالمنازعات اللاهوتية ، شغوفا بموضوعاتها ، غير متدين . وفي قرن الكلاسيكية ، كان ڤولتير كلاسيكيا ورث نظام الحكم السابق . وفي قرن شهد مولد العلم ، لم يكن ڤولتير عالما ، ولكنه كان هاويا مثقفا ومبسطا قديرا للعلوم » .

ويروى لنا الأستاذ جوستاف لانسون قصة حياة ڤولتير العاصفة الطويلة - التي دامت اربعة وثمانين عاما - في دقة ووضوح وجلاء ، شأنه في ذلك شأن المؤرخ الأمين والأديب الواسع الاطلاع والناقد العادل البصير الذي عاش مع الادب الفرنسي في شتى عصوره فأخرج لنا كتابه القيم « تاريخ الأدب الفرنسي » (١) ، الذي سنتحدث عنه في عدد قادم .

وقد حدد الأستاذ لانسون لنفسه منهجا واضح الدلالة ، أراد أن يلتزمه حتى لا يضل القارىء وسط هذا الانتاج الوفير ، المتعدد الجوانب ، الزاخر بكل ضروب التناقض . فقد اجتهد ، كما يقول في تقديم الكتاب ، في أن يتحدث عن ڤولتير حديثا تاريخيا محكما ، دون مبالغة في تمجيده أو تهوين من شأنه ، ودون نظر الى مشاغل العصر الحاضر ومسائله ، مستشهدا دائما بفكرة ڤولتير أو بعباراته ، فيما يخص امور عصره . وبذل جهده في أن يوضح الاتجاهات الأساسية لفكر ڤولتير القلب . على أنه يمكن القضاء على بعض جوانب هذا التناقض بالاجتهاد في تأريخ النصوص ، والبحث عن مصدر كل نص منها ، وعن معناه المحدد بالظروف والحالات المختلفة التي أحاطت بتأليفه . فيجب على الباحث أن يعني بتمييز ما كتبه ڤولتير للجمهور مما كتبه في رسالة خاصة ، وبالتفريق بين ما صدر فيه عن

(١) ترجمه الى العربية الزميلان الدكتور محمود قاسم عميد كلية دار العلوم والدكتور محمد القصاص أستاذ الساميات بآداب عين شمس ، وراجعته السيدة الزميلة الدكتورة سهير القلماوي رئيسة قسم اللغة العربية بآداب القاهرة .



« ڤولتير »

فلسفة عميقة وبين ما هو « فلتة من فلتات مزاجه » — على حد تعبير الأستاذ المترجم — وتحـديد ما سجل فيه فكرته العامة عن نظام من النظم الاجتماعية ، أو ما انتهز فيـه فرصة للحصول على منفعة شخصية .

ومن الواجب تقدير ما أدخله على أسلوبه من تنويع ، تبعا لما هدف اليه فيما كتب : فقد يعالج أمرا من الامور أو يقصد الى شخص من الأشخاص ، ثم انه قد يكون — نتيجة لصياغته الأدبية — جادا أو ساخرا . وقد يتحدث فولتير باسمه أو يلبس قناعا يستلزم لهجة خاصة ، أو يتخذ لنفسه عواطف وأفكارا من نوع ما . وحين يتناقض في توكيد قضاياه ، علينا أن نبحث فيها عما يمثل فكرته الخاصة ، وعما يتنازل فيه — تضحية منه — لأفكار العامة ، محتفظين للأفكار بقيمتها المختلفة . فهي في بعض الأحيان موضع جدال بين معاصريه ، وهي في أحيـان أخرى تابعة للموضوع ، مسوقة في مجرى المحاجة . وفي الحالة الثانيـة يجتهـد فولتير ، ما وسعه الجهد ، في اختيار العبارات التي لا مجال فيها لخصام ، كي يحدد حومة الجدال ، على أن يعود في الغد ليشهر حربا في الميدان الذي سبق أن تجنبه .

ويخلص من هذا كله الى القول : « وهذه القيود التي رأينا ضرورة التزامها صعبة التطبيق ، وليس وراءها مزيد من الاحتياط ولا من الدقة ، اتباعا للقصد ، وتجنبا للتحزب والجري وراء العواطف الذاتية . وهذا مالا جزاء لي فيه على اطراء نفسي بأني اتبعته دائما ، أو نجحت في الوصول الى هدفي منه في كل ما قصدت . » (١)

مبادىء برجوازية :

ولد فولتير ، وهو فرانسوا ماري أرويه ، في ٢١ من نوفمبر عام ١٦٩٤ في باريس من أبوين ينتميان الى الطبقة الوسطى . فقد كان أبوه موثقا للعقود أمام محكمة باريس « شاتليه » ، ثم أصبح جابيا للغرامات وضريبة التوابل في ديوان المحاسبة . وحينما بلغ فولتير السابعة من عمره فقد أمه « مارجريت دومار » Daumard لا « دوماريه » كما يقول الأستاذ المترجم (٢) .

ويمكن ادراك ما ترتب على فقد أمه من نتائج ظهرت في تكوينه الخلقي ، وكان فولتير أصغر خمسة أبناء ، لم يبق منهم على قيد الحياة سوى ثلاثة : « أرمان » وقد ورث والده في وظيفته وابنة تزوجت من مينيو . كان طفلا ضئيل الجسم ، نحيلا في مظهره ، ولكنه كان في الحقيقة قوي البنية كما تدل على ذلك حياته مستقبلا ، ثم ما وهب من الشغف العظيم بالحياة والاقبال عليها ، في وجهه شيء من القبح ولكن في نظراته حدة ونفوذ وذكاء شديد .

وعن هذا الأصل البرجوازي الخالص ، ورث فولتير طريقة النظر الى الحياة العامة والوعي ، الخاص بالأشياء . ففي نهاية القرن السابع عشر — لا القرن السابع ، كما يذكر الأستاذ المترجم (٣) — بدأت البرجوازية تجادل في امتيازات نبلاء المولد ، ولـكن لم يكن هـذا الجدال للقضاء على امتيازاتهم ، بل لمشاركتهم فيها . كانت طبقة نقادة ساخرة ، تعتمد في سخريتها على طائفة من رجال البلاط ، كما كانت تضيق ذرعا بالعزلة التي فرضها عليها لويس الرابع عشر . واصبح شباب الاشراف يحلمون بقيام حركة اقطاع حديث ، وبرز فعل ارستقراطي شعبي . كانت هذه الطبقة الوسطى تفـدي هـذا كله معتدة « بأن الفضائل الذاتية والعمل وامارات النبوغ ومعجزات العمل ، ثم الثراء نفسه ، كلها مؤهلات تخول لأهلهـا حق مقاسمة نبلاء البلاد في ميزاتهم الاجتماعية (٤) » .

فلم تكن هذه الطبقة ثورية ، لأن كل برجوازي ناجح كان يرمي الى أن يدخل في زمرة طبقة الاشراف ويدخل فيها أبناءه ليكونوا نبلاء الزي في القضـاء والمحاماة أو نبلاء السيف بالانتظام في سلك ضباط الجيش . وظلت هـذه الطبقة متمسكة بحـكمة كانت سائدة وهي انه ليس في البرجوازية من يظلون برجوازيين سوى الحمقى .

نبوغ مبكر :

اتخذ فولتير لنفسه من ضعف جسمه سلاحا استخدمه في حياته . والواقع انه سرعان ما أصبح على جانب كبير من حيوية النفس والجسم : فقد كان ، وهو في الثالثة من عمره ، يتلو عن ظهر قلب قصص لافونتن وقصيدة

(١) ص ٨ .

(٢) ص ٩ ، س ١١ .

(٣) ص ١٠ ، س ١١ .

(٤) خالف الأستاذ المترجم النص الفرنسي خطأ حين قال : « فكانت الطبقـة البرجوازية تعتد بأن الفضائل الذاتية والعمل والأوسمة التي تمنح بسببهما ، والثراء .... » ص ١٠ ، س ١٤ — ١٦ راجع الأصل الفرنسي ، ص ٨ ، س ١٩ — ٢١ .

Moroad التى تعرضت للاديان جميعا بالذم والهجاء .

وفى العاشرة من عمره ، الحق ڤولتير بمدرسة لويس الاكبر . وتولى اليسوعيون تعليمه فطبعوه بطابعهم ، وكانوا يعنون عناية كبيرة بتعليم تلاميذهم اللغة اللاتينية والبلاغة ، ويعودونهم احترام الأغراض القديمة : من ملاحم ومآسى ومحاورات . وكانوا يعتقدون اهمية كبرى على الصور البيانية ويعلمون الحكمة الدينوية . وقد انفقت ميول فرانسوا مارى اروية مع تعليمهم الى حد بعيد . ولم يلق اليسوعيون من قبل ذهنا تفتح لجميع المعارف ونضج قبل الأوان مثل ذهن هذا الطفل . فكان الأب بوريه ـ وهو رجل فاضل ، ظريف ، طيب السريرة ـ يقول عنه فى مودة وحب : « انه يحب ان يزن بموازينه الصغيرة المصالح الكبرى لأوربا (١) ! » ومع ذلك ، فقد ظل التلميذ طفلا يشاكس اساتذته .

وحينما غادر المدرسة ، كان يشعر تماما بكفايته حتى انه قال لأبيه حين طلب منه ان يتخذ لنفسه مهنة : « لا أريد لنفسى غير مهنة الادب ! » وكان المسجل أرويه ، الذى اشترى لنفسه فى ذلك الوقت منصبا ، يود لو اصبح ابنه رجلا من رجال القانون . ولكن كيف السبيل الى احتجاز طفل لا يحترم شيئا فى مدرسة للقانون ؟ لقد حاولوا عبثا اقناعه بما لمنصب القضاء من مكانة ، فكان جوابه دائما : « قولوا لأبى بأنى لا اريد لنفسى مكانة تشرى بالمال ، وسأعرف كيف أخلق لى مكانة لا تكلفنى شيئا ! » .

واخذ ڤولتير مكانه فى ارفع البيئات الاجتماعية تأنقا ومنزلة ، وهو لا يزال فى سن العشرين . وفى سن الثلاثين ، اوجد لنفسه مكانا بين رجال الحاشية . وكان يدفع ثمن ذلك المجد من فكره فى ارتجالاته وحكاياته ، وملحه الشعرية المليئة بالدعابات ورسائله ، وهو لمن زهيد بالنسبة لعبقريته ورقة ذوقه واسفافه فى مرحه ومجونه فى خواطره ! ولكى يثبت اقدامه فى عالمه الجديد ، كان يتحتم عليه ـ وهو البورجوازى ـ أن يكون على جانب عظيم من الثراء . وفى هذه السبيل ، كان يبذل جهدا كبيرا ليكون واسع الثراء . لم يكن يكفيه أن ينتج الشعر والنثر ويحيا على تلك البضاعة ، ولم تكن رواتبه السخية من الملك والملكة ورجال الحاشية تسد نفقات الحياة فى الطبقة العالية من المجتمع .

(١) ڤولتير تأليف أندريه موروا ، وترجمة : عبد الحميد الدواخلى مطبعة الفكرة ، فبراير عام ١٩٤٩ ، ص ٩ .

لذلك اتجه بعقليته البرجوازية الى التجارة ، واختلط برجال المال ودفعته ميوله الى عمليات البنوك ، وتولدت لديه الجرأة على المخاطرة ولكن فى حذر شديد . اسهم فى شركات كثيرة ، واشترى وباع اسهما عادت عليه احيانا بثلاثة اضعاف ما وضع فيها من رأس مال ، وعقد صفقات على قمح شمال افريقيا . واودع مبالغ ساهم بها فى رأس مال للقيام بالمخاطرة الكبيرة فى تجارة كاديكس مع امريكا . وعلى هذا اصبح على حظ كبير من الثراء ، بعد ان كان مدينا فى عهد حداثته يقترض من المرابين . لقد اصبح مقرضا لكبار الامراء الذين وقعوا فى ضائقة مالية .

وبالرغم مما استخفه من نشوة النجاح ، لم يلعب دوار هذه النشوة برأسه الى حد الافراط . فلم تكن صلاته بالنساء على كثرتهن ـ ومن بينهن بامبت واميلى الفاتنة ـ مدعاة بلبلة عميقة الأثر فى نفسه . لقد كان أكثر استجابة لاحساسه المرهف من استجابته لداعى الهوى ، ولذا كان قلبه أحوج الى الصداقة منه الى الحب . وظل ذوقه السليم ذا طابع برجوازى وسط هذه الانتصارات القائمة على الغرور وطلب الملذات ، فلم تنصرف أنظاره عن هدف متين له ، بالرغم من ظنون والده فيه . لقد دعم اولا شهرته الأدبية وكان يؤمل لنفسه منزلة اخرى سوى تلك التى كان يقوم فيها بالتسلية فى اسمار العشاء والليالى الساهرة . وذلك انه كان يطمع فى الخلود : كان يحلم بأن يشيد له مكانا بجانب راسين وبوالو ، وكان يحفظ ما كتبا عن ظهر قلب !

اعتداد وشغب

ويصف لنا الأستاذ لانسون ڤولتير فيقول بأنه « ذو طبيعة متعددة الجوانب ، لتنوع ميوله الطبيعية ، ولتأثره بالعهد المضطرب الذى عاش فيه ، وبالبيئات المختلفة التى نزل بها . فلم يكن ڤولتير خبيث النفس ، بل هو خير شفيق ، أريحى النزعة ، مبغض للظلم ولكنه ولوع بالاعتداد بذاته ، نهم بصنوف الملذات وخاصة بالملذات التى يشعر فيها بوجوده وحيويته ، وهو متأنق فى مظهره ، صخاب ، سريع التأثر ، شديد الغضب ، حقود ، متحمس ، نشط ، محب للاستطلاع ، ماجن ، فره ، طائش ، مدلل ، وعلى هذا الاساس الطبيعى فيه دبجت الطبيعة الوان شخصيته : ففى الثلاثين من عمره ، كان فيه من البرجوازيين الطموح الى النبل ، وحب المال ، والتفاخر بالثراء وبالملكية ، وبعقد الصلات مع ذوى المكانة . وفيه صفات التحايل ، وهو يحقر شأن الكسب اليومى الذى ينال بكثير

من الجهد ، ويهتم بالأعمال التجارية وعقد الصفقات . وله ولوع بوسائل الحياة أللينة من الأثاث الجميل والزينة ، وهى ترف محدث النعمة . وقد شارك الطبقات الأخرى جميعا فى مزاعمها التى تقضى باحتقار اليهود وصغار الناس ، وجمع الى ذلك مزاعم نبلاء المولد فى احتقارهم لرجال القلم الذين يعيشون مما يكتبون . ولم يكن لديه دافع النبل الطبقى ، فلم يكن يفكر فى المبارزة من أجل ذلك ، بل من أجل الناس من حوله . وكان من اليسير عليه أن يعيش دون انتقام . فسل السيف من غمده حركة لم تتعودها ذراعه البرجوازية ، ولا يشعر بأناقتها فكره الفلسفى . ليس من طبيعته التهوين من شأن المال ، فهو كلف بالبهرج بدافع من كبريائه ، ولوع بالاقتصاد ورالة . انه لا يعير اهتماما طريقة أولئك النبلاء الذين يتسامحون فى معاملتهم حتى يسرقهم الناس . وبالرغم من ظهوره بمظهر الأمراء ، كان يساوم فى معاملاته مساومة البرجوازى ... وموجز القول أن تصوره للحياة فريد لا ينطبق على نموذج محدد من نماذج عصره . فلم تتعرف فيه طبقة من الطبقات على صورتها الوراثية فى التفكير والعادات . فهو مزيج منها جميعا . وبهذا يفسر مسلكهم حياله ، اذ لم يعترفوا له بأى اعتبار (١) .

لم تكن تلك الحياة الطويلة الصاخبة سهلة يسيرة دائما ، فقد زج بفولتير مرتين فى سجن الباستيل : الأولى يحددها الأستاذ لانسون بأحد عشر شهرا من مايو عام ١٧١٧ الى أبريل عام ١٧١٨ ، بينما يذهب اندريه موروا الى أنها كانت ثمانية عشر شهرا ، وان اتفقا على أن سبب سجنه يرجع الى الأهاجى التى كتبها ساخرا من العهد الماضى ومن الملك فى مثل قوله : « هذا الطفل الحاكم ! » وحينما خرج من الباستيل هذه المرة ، لقى الوصى على العرش ، الدوق فيليب دورليان الذى استقبله ضاحكا ، وقال له : « مولاى ، انى لمعترف بفضل جلاله الملك حين تعهد بطعامى ، ولكنى أرجو الا تتعهد سموك بعد الآن بمسكنى ! » وكان هذا عقابا صارما الا أنه مشرف لشاب مغمور مثله ، وقد صار به ذا شأن كبير . لقد ولد فى نفسه مشاعر قوية وخواطر لها قيمتها تدور حول العدالة الاجتماعية . وتفتحت نفس ذلك الشاب الجم الحيوية حين وضع بغتة بين أربعة جدران . واننا لنتصوره طول يومه يشحذ قريحته فى عبارات تنطوى على القسوة والدعابة والسخرية ويحلم بالدستور الانجليزى أو بقانون حرية الانسان . كان فولتير يشتغل فى الباستيل ، وقد أراد أن يصبح أكبر شاعر حماسى فى فرنسا فألف فى سجنه أولى اناشيد ملحمته « الهنرياد » ، وهى قصيدة طويلة فى مدح هنرى الرابع الذى اتخذه ذريعة لمهاجمة التعصب فى جميع اشكاله .

اما المرة الثانية ، فكانت على اثر مشادة فى « الكوميدى فرانسيز » بينه وبين أمير كبير هو فارس « روهان » ، فأشار الأمير بدعوته للحضور الى قصر الدوق «دى سولى» ، وكان هذا الأمير مدعوا عنده لتناول طعام الغداء ، فضربه خادمان بالعصا على كتفيه . وكان الفارس فى مقدمة العربة يشرف على هذه العملية ، فقال : « لا تضرباه على راسه فقد يخرج منه شىء طيب ! » وعندئذ صاح المارة الذين تجمعوا حول العربة : « آه ! يا للسيد الطيب القلب ! » .

صعد فولتير الى الدوق دى سولى ، مغيظا معذبا حزينا ، ورجا أصدقاءه من الأشراف أن يذهبوا معه الى رئيس الشرطه . فضحك الدوق وأصدقاؤه ورفضوا اجابته الى طلبه . وعلى كل حال ، فقد كان المعتدى ينتمى الى أسرة روهان ، ولم يكن المضروب الا شاعرا فحسب ! انه لحادث هين لا قيمة له ! قضت هذه الوحشية على الأوهام التى كان يعيش فيها فولتير . وقد أراد أن يبارز خصمه لينقذ شرفه ومكانته الاجتماعية ، وفكر جديا فى الأمر عدة شهور ، ولكنه لم يبارز ، واختفى فارس « روما » اذ كان فى حماية اسرته ورجال الحاشية . ولتوفير الأمان له ، وضع فولتير وهو ضحية العدوان فى سجن الباستيل فى ١٧ ابريل عام ١٧٢٦ وغادره فى ٢ مايو من العام نفسه . فلم يبق فى السجن الا خمسة عشر يوما لا شهرا كما يقول الأستاذ لانسون (١) .

رسول الاصلاح :

ويتحدث لانسون عن فولتير فيلسوفا ، محللا تحليلا عميقا رسائله الفلسفية ، وأديبا دارسا حكاياته ومحاوراته وأقاصيصه الهزلية وقصصه ، ثم شاعرا فى أشعاره ومسرحياته . وبعد هذا يعرض للنقد التاريخى والنقد الأدبى ومكانة فولتير فى اصلاح فرنسا فى عصره ، ذلك الاصلاح الذى وضع له مبادىء للحريات الضرورية :

- اولا : حرية الأشخاص ، فالرق ضد الطبيعة .

---

(١) ج . لانسون : فولتير ص ٢٧ ــ ٢٨ .

(١) راجع ص ٢٨ ، س ٦ ، ص ٤٣ س ٢ .

ثانيا : حرية الكلام والكتابة ، حتى فى أمور السياسة والدين . وهذه حماية لجميع الحريات ، وأساس لها . على أن يعاقب على التشنيع بالأفراد ، وعلى السباب الموجه ضد السلطة والقوانين .

ثالثا : الحرية المدنية ، وهى بمثابة دعوة لقيانون حرية الفرد حماية له من استبداد رجال السلطة .

رابعا : حرية الضمير .

خامسا : ضمان الملكية ، وتتضمن نزع الملكية مع التعويض بسبب المصلحة العامة ، وحق جميع المواطنين فى استحقاقهم للتملك ، ولكن دون مساواة بينهم فى الثراء .

سادسا : حرية العمل وبيع انتاج العمل الى من يتقدم لشرائه بثمن اغلى من غيره ، والعمل هو ملكية من لا ملكية لهم .

ولم يقتصر فولتير على نشر هذه المبادىء العامة ، بل اعاد النظر فى جميع اجزاء الحكومة والادارة فوضع قائمة للمساوىء والاصلاحات فى مجتمع يراه فولتير حقيقة واقعة ، وفى حكومات ذات سلطات واقعية ، تتوصل فى حكمها الطويل الى تصوير القوة تصويرا زائفا فى صورة حق . على انه لا حق الا فيما يقبله الناس عن حرية ، لأن الناس أحرار متساوون فى الطبيعة . وينكر كل حق الهى للملوك ، والديموقراطية هى أقرب الحكومات الى العقل .

كان فولتير فى طموحه الى الوصول الى نتائج ايجابية وفى تحديه للقوانين ، لا يعنى اطلاقا بما عنى به « مونتسكيو » و « روسو » من وضع نظرية سياسية أو رسم منهج لمجتمع مثالى ، وانما كان يواجه المشكلات التى تعترض الناس فى حياتهم ويحاول جاهدا اصلاحها .

امضى سنوات شيخوخته من سن الستين الى الرابعة والثمانين ينقد الكنيسة ورجال الدين والقضاء والتعليم ونظام الضرائب والزراعة والتجارة والصناعة ، ونادى بأن الضرائب ليست مفروضة للاسراف منها فى القصر الملكى وتقديم الطعام للمتطفلين ، بل هى ضمان لاقرار النظام ونشر الأمان والقيام بالمشروعات العامة المختلفة التى تتيح الرفاهية والطمأنينة للشعب . ثم طالب الدولة بأن تقدم المساعدات العامة لتنشىء وتصلح المستشفيات وتقيم دورا للأمومة ومنازل للقطاء وملاجىء لرعاية الشيوخ والعجزة . على أن تستخدم فى هذه المنشآت الأموال الفائضة من ثروة رجال الدين والاديرة ، ثم من حق الفقراء المفروض على أجور دور اللهو (١) .

(١) لا على أجور المسارح والخيالة ، كما يقول الأستاذ المترجم لأن الخيالة لم تكن قد عرفت بعد زمن فولتير . ص ٢٠٨ ، س ٨ .

نادى فولتير بهذا كله فى حماس لا يتسرب اليه الكلل ، بطريق السخرية تارة والغضب تارة أخرى ، جاهدا ما وسعه الجهد فى ان ينير عقل الجمهور ويستحث مشاعره الانسانية . ليتسنى له تحقيق الوعى الاجتماعى والفكرى فتسود مبادىء الحرية والمساواة والانسانية . تلك هى الحملة الشديدة التى شنها فولتير على حكم لويس الخامس عشر للطغيان الكبير وأثرة القصر واسرافه حين كانت الهيئات الكبيرة ورجال القضاء والكنيسة فى شغل شاغل بامتيازاتهم ، لا يعنون اطلاقا بالخير العام ، مع الاضطراب الشديد فى جمع الأموال العامة ، وسوء نظام الضرائب الظالم ، وضخامة دخل كبار رجال الدين الذى كان مجلبة عار اذا ما قيس ببؤس صغار رجال الكنيسة فى القرى ، واضطراب القوانين والاحكام الجائرة التى صدرت فى قضية كالاس وقضية الفارس دى لابار واحراق القاموس الفلسفى لفولتير لأنه مصدر للكفر والالحاد ، على حد زعم المستشار باسكييه فى حديثه أمام البرلمان بباريس .

أرضى فولتير دعائم الثورة الفرنسية فعاملته معاملة نبى من الانبياء ، واستقبلته باريس ، بعد أن ظلت أبوابها مغلقة فى وجهه طيلة حكم لويس الخامس عشر ، كما تستقبل الملوك . ففى الحدائق والمقاهى والشوارع ، كانوا لا يتحدثون الا عن فولتير . وحينما ذهب الى المسرح ليشهد تمثيلته « ايرين » وقف جميع النظارة وصاحوا قائلين : « ليحى فولتير ! المجد للمدافع عن كالاس ! المجد للرجل العالمى ! » ثم صممت الجماهير على ان يقدم الممثلون له تاجا ، وارتفع الستار بين مشهدين ، فرئى على المسرح تمثال لفولتير ، أخذ الممثلون يمرون أمامه ويضعون على رأسه تيجانا من الغار . وكانت الجماهير تقف فى كل مرة متجهة الى فولتير وتصيح قائلة : « الشعب هو الذى يقدمها لك ! » .

ثم صحبته الجماهير فى نصر عظيم الى قصر «دى فييت» وكانت النساء يحملنه بين اذرعهن لفرط اعيائه ، فكان يقول لهن : « انكن تردن ، سيداتى ، أن تمتننى من فرط سعادتى ! » . لم يلق أى كاتب مثل هذه المظاهر من التبجيل ، ولكن فولتير مع هذا لم يفقد رشده ، فقد قال له احد أصدقائه : « ما أكثر المهللين لك ! » فأجابه قائلا : «انهم سيكونون بهذه الكثرة وهم يشاهدون تعذيبى !».

ملاحظات :

أما بعد ، فهذا كتاب قيم يصور لنا فولتير فى جميع ادوار حياته تصويرا صادقا . وضع مؤلفه منهجا واضحا

وكتبه فى اناة شديدة وتؤدة كبيرة . وكم كنت أرجو أن تكون الترجمة صورة صادقة للأصل ، ولكن الأستاذ الصديق المترجم لا يؤمن بالبطء فى مثل هذه الأعمال الادبية ، فترجم الكتاب على عجل وطبع على عجل فكثرت فيه أخطاء الترجمة وأخطاء الطباعة بل أخطاء العربية أيضا .

ورد فى التقديم هذه العبارة : « وبالتفريق بين ما صدر فيه عن فلسفته العقلية وبين ما هو فلتة من فلتات مزاجه (١) » ترجمة ل : Plyilosophie réfléchie ou échappcment d' humeur وهى فلسفة عميقة تصدر عن تدبر وامعان فى التفكير أما الفلتة لغويا فتعبر عن الأمر يحدث من غير روية واحكام ، أو هى غير المقصودة . ويخيل الى أن المؤلف قد أراد التعبير عن نزوة من نزوات ڤولتير أو عن هوى من أهوائه ، كما ورد أيضا فى التقديم : « وفى الحالة الثانية يجتهد ڤولتير ، ما وسعه (٢) ، فى اختيار العبارات .... لو أضاف الأستاذ المترجم **الجهد** على عبارته « ما وسعه الجهد » لاستقامت الجملة .

ويتحدث المؤلف عن قصر « سيراى » ويصفه بأنه جدير بأن يرى : لمنظره الفاتن الذى كان قديما **ذا طابع** موحش (٢) ترجمة لكلمة Sauvage واعتقد انه يقصد ذا طابع بدائى ، **فطرى** . اذ كيف يتفق المنظر الفاتن مع الطابع الموحش ؟ ثم وردت هذه العبارة : «ويتجلى فى كل ذلك **ما احاط** بحياة ڤولتير »، ترجمة لكلمة le Cadre ؛ ولو أن المترجم قال : « ويتجلى فى كل ذلك **طابع** حياة ڤولتير ... » لكان المعنى أدق .

اما ام ڤولتير فكانت تدعى مارجريت **دومار** Daumard لا دوماريه (٣) . وعبارة فعلى حسب طبعة مولان (٤) ، قد تقبل من غير الأستاذ الدكتور المترجم .

ثم نقرا فى الكتاب العبارة التالية : « ففى نهاية القرن **السابع (٥)** ، بدات البرجوازية تجادل فى امتيازات نبلاء المولد ... » وصحة التاريخ : نهاية القرن **السابع عشر** .

ولا ادرى لماذا يحلو للأستاذ المترجم أن يكتب كثيرا أسم « جان باتست روسو » على هذه الصورة جون (٦) باتست روسو ، كما يكتب جون دارك وجون جاك روسو كما لوكانت أسماء انجليزية لا أعلاما فرنسية .

---

(١) ص ٧ ، س ١٢ و ١٣ .

(٢) ص ٨ ، س ٦ .

(٣) ص ٨ ، س ٢١ ، ص ٩ ، س ٩ .

(٤) ص ٩ ، س ٤ فى الهامش .

(٥) ص ١٠ ، س ١١ .

(٦) ص ١١ ، س ٩ .

ونقرأ هذه العبارة التى تدل على ترفع الدوق سان سيمون وازدراء شأن ڤولتير : « وفى هذا المستوى من الترفع ، يلحظ الدوق سان سيمون أن ڤولتير الذى **صار شخصية ملحوظة** (٧) ليس سوى ابن موثق عقود لوالده . » وذلك ترجمة للأصل الفرنسى :

devenu Une maniere de persanage أى أنه صار **ضربا من ضروب الشخصية** ، صورة من صورها بدليل اسم الاشارة Ce الذى سبق اسم ڤولتير ، وهو أسلوب يدل على السخرية والاستهزاء ، ويبين تماما أن سان سيمون لا يؤمن بأن يصبح ڤولتير هذا (هذا الڤولتير) شخصية من الشخصيات .

ولا ادرى لماذا يلح الأستاذ المترجم فى أن يصف ڤولتير بالمجون والدعارة فى أكثر من موضع من الكتاب ، مع أن المعنى لا يحتمل ذلك اطلاقا . فقد وردت هذه العبارة : « ذكاء ڤولتير المبكر ومجونه (٨) المبكر كذلك » . ترجمة لما ورد فى الأصل :

la précocité d'intelligence et la précocité d'impertinence de Voltaire, والمراد ذكاء ڤولتير المبكر وشغبه المبكر او قحته المبكرة .

ثم نقرا بعد ذلك بصفحات هذه الجملة : « على الرغم من ذلك ، طلب الوالد « ارويه » امرا بحبس ابنه « الداعر » (٩) ترجمة لكلمة Ccquin التى تدل على الكسل والتواكل ولا تدل على الدعارة ، وتتفق مع عواطف الاب الذى يرجو الخير لابنه المستهتر المتهاون .

وهناك مسألة حسابية يسيرة كل اليسر هى ان السيدة العجوز نينون تعرفت بڤولتير وهو لا يزال صغيرا فبهرتها حدة ذكائه وأوصت له بألفى « ايكو » (١٠) ليشترى بها كتبا . اما الأستاذ المترجم فقد حول هذا المبلغ الى فرنكات وجعله ستة آلاف من الفرنكات (١١) ، مع أنه يعلم انه قد كان هناك نوعان من الايكو : الايكو الفضية أو البيضاء ، وكانت قيمتها ٦٠ سو أو ثلاثة جنيهات ، والايكو الذهبية كانت تساوي ١١٤ سو أى اقل قليلا من ستة جنيهات (١٢) .

---

(٧) ص ١١ ، س ١١ .

(٨) ص ١٣ ، س ٢٠ .

(٩) ص ١٧ ، س ١٥ .

(١٠) الاصل الفرنسى : ص ١٣ ، س ١٢ .

(١١) ص ١٥ ، س ٢١ .

(١٢) راجع قاموس : اللغة الفرنسية الكلاسيكية ، مادة G. Cayrou ; Le Français classique تأليف ج . كايرو .

ثم نرى مرة أخرى أن المترجم قد وصف ڤولتير وصفا لا يحتمله النص حين قال :

« واعتزم الأب تغريب ولده المتعطل الخليع العذار (ص ١٦ ، س ١٢) ترجمة لكلمة le garnement التى تدل على التعطل ، على الصعلكة ولكنها لا تفيد اطلاقا خلع العذار . ولا أدرى لماذا أهمل المترجم تاريخ رحلة ڤولتير مع المركيز دى شاتو نوف الى الاقاليم المتحدة ، مع ان المؤلف ذكر أن الرحلة كانت فى سبتمبر سنة ١٧١٣ (ص ١٦ ، س ١٤) مع أن هذا التاريخ له قيمته ، لأن ڤولتير لم يكن قد بلغ بعد التاسعة عشرة من عمره .

ثم لا ادرى أية قاعدة نحوية اجازت للمترجم ان يقول فى هامش ص ١٧ : مؤلفات ڤولتير ، المجلد الثالث والثلاثين ؟ بدلا من المجلد الثالث والثلاثون ؟ .

ثم نقرا هذه العبارة : « وكان ينساب **كالجرى** فى كل الأماكن التى تصادف فيها المتعة والزهو مرتعا خصبا . » وهى عبارة غامضة ، ما دامت كلمة « **كالجرى** » لم تشكل ولم تشرح ، والمقصود بها ثعبان السمك او الأنقليس كما ورد فى المخصص : ٢ ، ١٠ ؛ والمراد أن ڤولتير كان يسارع الى كل مكان يصادف فيه المتعة ويتيح له ارضاء غروره .

ونرى فى الترجمة هذه العبارة : « وبذلك يندمج ڤولتير فى البلاط وتستظرف الملكة الشابة **ليكزنسكا** هذا الشاعر الملاطف المسلى ، وتدعوه « صديقى الصبر (هكذا) ڤولتير » وقد ترجمت كلمة pénètre بيندمج والواقع ان ڤولتير بدأ يغشى البلاط ، ولا تدل الخطوات الأولى على الاندماج . أما هذه الملكة الشابة فهى مارى **ليكزنسكى** زوجة لويس الخامس عشر لا ليكزنسكا كما ذكر المؤلف وتبعه المترجم . والاصح ان يكتب اسمها على هذه الصورة Leszczynski وينطق **لشتشينسكى** لانها تنتمى الى أسرة بولونية كان منها ملك بولونيا ستانيسلاس (٢) . اما عبارة الملكة : صديقى الصغير ڤولتير » ففيها تجاوز للأصل الذى ورد فيه Mor pouvre Voltaire فالملكة لم تشرفه بصداقتها ! وبعدذلك نقرأ هذه العبارة : « وفى عام ١٧١٥ كان مشغولا بوضع مسرحية عن أوديب ، مزهوا **بأنقح مشروع** سوفوكليس ... » (ص ٢٢ ، س ٧) .

اما النص الفرنسى فأوضح من ذلك بكثير ، اذ ورد فيه :

Se flattant d, améliorer l' ébauche de Sophocle.

---

(٢) لاروس الصغير ، ط ١٩٥٦ ، ص ١٤٩٠ و ص ١٤٩٤

« مزهوا باصلاح أو بتقديم أو بتهذيب محاولة أو تخطيط او مسودة سوفوكليس » . فكتب مسرحية أوديب خالية من الخلاعة والغرام . » (ص ٢٢ ،س ١٢) والأصح أن يقال « خالية من **الدلال** أو من الغزل » ترجمة لكلمة galanterie.

ثم ما بال المترجم يعدل عن الصيغة العربية ويستعمل الصيغة العامية حين قال :

فجملوا الوقور « فيلكتيت » يتنهد أمام جوكاسته العجوزة (ص ٢٢ ، س ١٥) بدلا من **العجوز** .

ثم لا ادرى الى أى مدرسة من مدارس النحو تخضع هذه الجملة :

وهذا المسلك سياسيا أكثر منه عقليا ، ولا ينبغى ان يحكم عليه حكما مطلقا (ص ٧٨ ، س ١٣ ، ١٤) .

أما الأصل الفرنسى فهو :

Cette attitude, plus politique que rationelle, ne doit pas se juger dans l'abstrait.

وصحة الترجمة : « وهذا **المسلك** ، وان كان سياسيا أكثر منه عقليا ، لا ينبغى أن **يحكم** عليه حكم مجرد . » والعجلة التى هى طابع هذا الكتاب تجمل الأستاذ المترجم يجعلنا نقرأ مثل هذه الأخطاء : « على أن هذا هو الذى كان يقصد اليه كل من بورنيه ثم « ودوورد وبلوش الطيب القلب ، اذ كانوا **بعيدون** من العلم فى تعرفهم **عن** الحقائق ، كبعد ڤولتير عنه فى مجادلتهم **فيها** . » (ص ٨٢ ، س ٢٢) والأصح أن نقول : « اذ كانوا **بعيدين** عن العلم فى تعرفهم **على** الحقائق ... » .

ومثل ذلك ما ورد فى ص ٩٣ ، س ٢١ : « ولم يكن الملك ـ وجميع هؤلاء **المغامرون** فى ميادين الفكر ... » والصواب **المغامرين** .

وما جاء فى ص ١٦١ ، س ١٨ « ... وقضاة ، وممثلين ، وشمامسة ، ورجال أدب ، ومديرين **وتجار** ، ومحامين ... » وأعتقد أن **تجارا** كلمة ليست ممنوعة من الصرف . ثم نقرأ فى ص ٢٢٢ ، س ٢٠ هذه العبارة : « اتركونى **أموت** فى سلام . » والأصح أن تقول : « أتركونى **أمت** فى سلام » .

ثم يتحدث الأستاذ لانسون عن قضية **كالاس** التى كان لها دوى كبير فى عصر ڤولتير . وهو جان كالاس (١) ، لا « **جون كالا** » كما يذهب السيد المترجم .

---

(١) لاروس الصغير ، ص ١٢٥٤ ، ط ١٩٥٦ .

الدين والأخلاق فى شعر شوقى

تأليف : على النجدى ناصف
الناشر : مكتبة نهضة مصر
٢٣٣ ص ٢٤×١٧ ش ٥٠ قرشا

هذا كتاب طبع مرتين : طبع أولا سنة ١٩٤٨ ، وطبع ثانيا سنة ١٩٦٤ . وقد صرح المؤلف فى مقدمة الطبعة الثانية بأنه قد أعاد النظر فى الكتاب اذ قراه قراءة ناقدة متأنية ، بداله فى أثنائها ملاحظات مختلفة اقتضت حذفا وزيادة ، وتقديما وتأخيرا ، وتنقيحا وتغييرا ؛ ومعنى هذا أن المؤلف يتحمل تبعة كتابه اليوم فى طبعته الحديثة ، ولا نحكم على الكتاب اذن باعتبار أنه صدر سنة ١٩٤٨ ، بل باعتبار أنه صادر سنة ١٩٦٤ .

والمؤلف يريد أن يؤكد لنا منذ مطلع حديثه أن دراسته لم تشبها شوائب المجاملة أو المذاكرة ، فليس هو بالصديق لشوقى ولا بالعدو ، وانما هو قارىء لشعره ، يقبل منه المقبول ، وينكر فيه المنكر ، ويخلص لوجه الحقيقة وحدها .

وهو يرى أن أمير الشعراء هو « شاعر العصر الحديث كله : ضخامة تراث ، وتعدد فنون ، وتدفق طبع ، وأصالة بيان ، وبعد أثر فى حياة العرب ، ومشاركة فى أحداث الحياة القومية والاسلامية ، بل فى الحياة الانسانية جمعاء » .

وأود أن أخالف المؤلف بعض المخالفة فى وصفه لشوقى بأنه « شاعر العصر الحديث » ، وان كان الدكتور شوقى ضيف قد جعل هذا الوصف عنوانا لكتاب له صدر منذ سنوات ، ودلل على هذا الوصف بالكثير من الادلة ؛ وانما أخالف المؤلف فى هذا الرأى ، لأنى ارى أن أحمد شوقى هو أكبر شاعر عرفته العربية بلا استثناء ، ولتفصيل هذا الرأى والمحاماة دونه مجال غير هذا المجال بطبيعة الحال .

وكأنى بوجدان المؤلف ينطوى على قريب من هذا الرأى ، وان كان لا يقرره أو يؤكده ، اذ نراه فى الصفحة الحادية والثلاثين من كتابه يصف أمير الشعراء بأنه « شاعر العربية الأكبر » ، ولو أننا وفينا هذا الوصف حقه من الشرح المستفاد من مدلول كلماته الثلاث لكان هذا الشرح قريبا من رأيى الذى أوجزته عن شوقى سابقا .

ولقد وطأ الباحث لبحثه بمقدمة قيمة عن المادية والروحية ، أو فلسفة المادة وفلسفة الروح ، لأنهما أصلان متقابلان لحياتين متقابلتين، أولاهما تخدم الجسد ، وتضرى الحيوانية فيه ، وتشد صاحبها الى الأرض ، وتجعل الآلة الهه ، فما يؤمن الا بها ، ولا يصدر الا عن وحيها ، والأخرى تصفى النفس ، وتهذب الفطرة ، وتسمو بصاحبها الى السماء ، وتملأ قلبه ايمانا بالله ، وثقة بالمثل الانسانية العالية .

أما أخطاء الطباعة فتعود بدورها الى العجلة الشديدة والى الرغبة فى الفراغ من العمل فى أقصر وقت مستطاع . من ذلك أن ص ٩٨ تطالعنا بالسطر الاول مقلوبا ، وفى ص ٢١٠ نرى السطر ٢٤ قد طبع مرتين . ثم نرى ص ٢١٨ قد تأخرت عن موضعها وحلت محلها خطأ ص ٢١٧ . وفى ص ٢١٥ ، س ٢١ الشاقيتان بدلا من الباقيتان .

ونرى الأستاذ المترجم يكتب هامشا فى ص ٢٠٢ ليطلب من القارىء أن يرجع الى الحديث عن « كانديد » وعن امكان اصلاح العالم ويحيل الى ص ١٥١ من الأصل الفرنسى ! وهو أمر بما لا يستطاع ، فأنى للقارىء الحصول على نسخة بالفرنسية ؟ .

لو أن الأستاذ المترجم أجهد نفسه قليلا لوقع نظره على هذا الحديث منشورا فى الصفحة رقم ١٦٦ من الترجمة أى فى الملازم التى روجعت تجاربها .

وبعد ، فهذه ملاحظات أريد من ورائها الخير للترجمة والمترجمين ، ولولا أن المترجم صديق كريم جامعى والمراجع زميل فاضل جامعى لما سمحت لنفسى أن أبدى مثل هذا النقد . ولكن رغبتى قوية فى أن يبذل الجامعيون جهدا كبيرا فيما يعملون ، فهم القادة فى ميادين الثقافة والعلم والأدب . وينبغى للقادة أن يصلوا الى أقرب درجة من الكمال .

عبد الحميد الدواخلى

والقارىء يعجب ـ دون شك ـ بما في هذه المقدمة من يقظة روح ، وحرارة ايمان ، وغيرة الباحث فيما استنكر من صـور لطغيان المادة على الروح في كثير من المجالات في مجتمعاتنا ، ولكن المؤلف ساق ضمن حديثه عبارة اخشى ان يساء فهمها اذ تفهم على غير الوجه الذى أراده الباحث ، وهـذه العبارة هي : « وليست المادية أصـيلة فينـا ، ولكنها وافدة علينا ، جاءتنا من الغرب مع ما جاءنا من شروره » .

أخشى أن يفهم فاهمون من هذا التعبير أننا لا نعطى المادة عنـاية في حياتنا ، مع أن عقيدتنا الدينية تقيم حياتنا على دعامتين : دعامة الروح ودعامة المـادة ، وتنظم لـكل دعامة مطالبها وحاجاتها ؛ وحسبنا أن نجد في كتاب الله تعـالى قوله : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخـرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » ، ونجد فيه الربط بين مجال العبـادة الروحية ومجال الكسب المادي : « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خـير لـكم ان كنتم تعلمون ، فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » . ونجـد الرسول يقول : « ان لبدنك عليـك حقا » ... الخ .

وقد يزيد في خشيتي أن المؤلف قد عاد في الصفحة الحادية والعشرين فقال : « لقد خابت المادية خيبة مرة ، وأخفقت اخفاقا ذريعا ، فما ابقاؤنا عليها بعـد اليوم ؟ وماذا عسى أن تكون جدوانا منها ؟ . لقـد صحبناها وتمرسنا بها ، فماذا كانت العاقبة ؟ لقد غيرت نفوسنا ، وقلبت سمتنا ، وأحلت لنا كثيرا مما كنا نراه حراما ، فاذا نحن مسخ شـأنه لا هو شرقي ولا غربي ، وها هي ذى في الغرب يضربها الخبال في الحين بعد الحين ، فتركب رأسـها ، وتفقد وعيها ، وتضرى بالدمار والفتك : تهدم حضارتها ، وتأكل بنيها ، وترسل على من تدع منها الجوع والمرض والشقاء ، فيذوبون كما تذوب الشمعة اذ تعلق بذبالتهـا النـار » ، وها نحن أولاء في بلادنا نقاسى من بأسائها مثل ما يقاسى الغرب أو يزيد » ! .

اذا كان الدافع الذى دفع بالمؤلف المفضال الى هذا الكلام دافعا كريما نبيلا ، أقدره وأشكره لأنه يريد أن يناصر القيم الروحية في عالم تغلبت فيه القيم المادية نوعا من التغلب ، فاني أخشى أن تكون الغيرة على القيم الروحيـة قد أكسبت هذه العبارات السابقة لونا من المبالغة يبعدها عن الفهم السوى لدى جمهور قارئيها .

لست أعيب المؤلف بهذا ، ولكنى حرصت أن نفهم حديثه على الوجـه الذى أراد ، وأن قصر التعبير بعض الشيء عن المراد .

* * *

والمؤلف يدرك وثاقة الصلة بين الدين والفن ، فيقول : « ان الدين لا يناقض الشعر والفن ، ولكن يلونهما ، ويلهم فيهما موضوعات سامية تستمد منـه الحياة والخلود ، واذا لم يكن بد لصحة الجسم واكتفائه أن يكون الطعام الذى يهيأ له متعدد الألوان مختلف العناصر ، فلابد لصـحة النفس واكتفائها أن تكون الثقافة التى تهيأ لها متعددة الألوان مختلفة العناصر كذلك ؛ فنحن في الشعر والفن بحاجة أن نرى صورا من الدين والدنيا معا ، لتتكافأ الموانع والدوافع ، ويتحقق القصد والاعتدال » .

والدين لا يناقض الشعر والفن فحسب ، بل لقد استعان الدين بالشعر في بث تعاليمه ونشر دعوته ومقاومة أعـدائه وتجلية مبادئه في صور جذابة مؤثرة ، لأن الشعر كلمة ، والكلمة لهـا تأثيرها القوى ، ولو طالعنا الباب الأول من كتاب « سـلاح الشعر » لوجدناه يفسح مجال القول عن أثر الكلمة وقوتهـا ، ثم يقول عن الشعـر : « انه كلمة موزونة ملحونة ، انه كلمـة منظومة منغمة ، انه كلمة منسقة منمقة ، فهو ـ اذن ـ بيان والحان ، وهو ـ اذن ـ يتضمن تأثير الكلمة المنثورة وزيادة عليه » ، فاذا سايرنا صفحات كتاب « سـلاح الشعر » وطالعنا منه أبواب : « القرآن والشعر » ، « الرسول والشعر » ، « الصحابة والشعـر » ، « الأمـة المسلمة والشعر » شاهدنا فيضا من الشواهد والأدلة على وثاقة العلاقة بين الدين والشعر .

وبعد أن يربط المؤلف بين الدين والشعر بما رأينا ، يتحدث عن روحانية شوقى التى تتمثل فى عدة امور منها : اشادته بفضل الدين وضرورته ، واجلاله للآداب الدينية ، وتغنيه بعظمة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومفاخرته بأعلام الاسلام ، وتصويره الفضائل النفسية فى ضوء الدين ، وتذكيره المتكرر الموصول بمكانة الأخلاق والقيم الروحية .

ثم يرى الباحث - محقا فيما يراه - ان شعر شوقى الدينى أحق الدراسة قبل اشعاره الأخرى ، فهو أجلها موضوعا وأشرفها غاية ، واطهرها منزعا من جهة ، وهو أصفاها معدنا ، وأشدها اشراقا من جهة ثانية ، وهو ابعدها عن شوائب المطامع والأهواء من جهة ثالثة ، وهو لم ينل حقه من الترديد ولا من البحث والدراسة من جهة ثالثة .

ويلاحظ الباحث أن الشاعر الأكبر كان مقلدا للبوصيرى فى « نهج البردة » و « الهمزية » ، ويعيب عليه هذا التقليد ، وخصوصا أنه قد طالت معالجته للشعر وتمرسه بأسبابه ، والتقليد يشل الملكات ، ويمسخ الشخصية ، ويقضى على الثقة بالنفس ؛ واذا كان الباحث يعيب الشاعر على هذا التقليد ، فهناك من لا يعيبه ، وهناك من يرى أنه من حسنات شوقى أنه حاول التشبه بالسابقين ، واذا كان قد قصر فى بعض الأحيان ، فان الطائر لا يجنح أبدا ، وقد يكون من استكمال الفكرة عن هذه النقطة أن نورد عبارة للأستاذ صلاح عبد الصبور ضمن مقال له بجريدة الأهرام يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٦٤ وفيها يقول :

« شوقى كان موهوبا رفيع القدر من الملكة الشعرية ، فلم يدر فى الفلك الذى كان يدور فيه بعض شعراء عصره من التقليد والضحالة ، بل طمع الى أن يكون عودته بالشعر الى أزهى عصوره فى الصيانة والأداء . كان شوقى سلفيا ولم يكن محافظا ، والفرق بين السلفى والمحافظ هو أن السلفى يريد العودة الى عصور الماضى الزاهرة ، فيلبس لباسها ، ويتحدث بلغتها ، ويفكر بطريقتها ، أما المحافظ فهو يريد الجمود على التأخر ، وذلك هو الفرق بين شاعر كشوقى وشاعر كالشيخ الليثى نديم اسماعيل .

والعودة الى السلف الصالح - وهم فى الشعر أبو نواس والمتنبى وابن الرومى وأبو تمام والبحترى وغيرهم ، سبيل سار فيه البارودى خطوات قبل شوقى ، ولكن خطى شوقى كانت أكثر اتساعا وأحر شبابا » .

وقد درس الباحث نهج البردة على عجل ، وتوسع فى المقارنة بينها وبين بردة البوصيرى ، وهو يغلب جانب البوصيرى على جانب شوقى فى بعض المواقف ، وينصف امير الشعراء فى البعض الآخر ، ولكن أحس أن الباحث قد استوفى البوصيرى كل حقه ، وفوت على شوقى بعض حقه ! . وان كنت أؤيده فى أن البوصيرى كان صادقا فى وجدانه وهو يمدح الرسول لظروفه الخاصة التى لم يمر بها شوقى .

والاحظ أن صبغة المقارنة بين شوقى والبوصيرى فى « نهج البردة » و « الهمزية » قد طغت على صبغة الدراسة لملامح الدين والأخلاق فى هاتين القصيدتين ، ولست ممن يستخفون بثمرات المقارنة فى هذا المجال ، فانها لكثيرة وجليلة ، ولكن الكتاب مخصص للدين والأخلاق فى شعر شوقى . كما قد يقال ان الدراسة قد تتضمنها أو تتخللها المقارنة ، وهذا حق ، ولكن الأصل فيما أرى - هو الدراسة ، وتأتى المقارنة تبعا لها .

وقد ذكر الباحث الفاضل فى كتابه القيم الممتع أن الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر الشريف ، هو الذى شرح «نهج البردة» . مع أن هناك من يؤكد أن هذا الشرح لم يضع فيه الشيخ البشرى حرفا ، وانما الذى شرحه هو ابنه الشيخ عبد العزيز البشرى ، ونسب الشرح الى ابيه ، وأذكر أن الدكتور زكى مبارك قد تعرض لهذه فى بعض أحاديثه الأدبية .

ويلاحظ الباحث على شوقى أنه اذا عرض فى شعره لتاريخ الاسلام او أحداث المسلمين لا يلتزم الترتيب التاريخى ، ولا يراعى توالى المراحل ، بل قد يقدم ويؤخر ، وقد يمزج بين مرحلة ومرحلة ، وقد يتخطى مرحلة الى مرحلة

بعدها . وشوقى لا يعـاب على هذا ، فانه لشاعر ، والشاعر يستجيب لخطراته ، دون التقيد بموضوعية البحث أو تناسق المنهج ، والشاعر غير المؤرخ الذى يحقق ويدقق ويلتزم خطته ومنهجه ؛ ولا اكتم اعجابى القوى هنا بما لمحه الباحث من ملاحظات ، وما وفق اليه من لفتات ! .

ويأخذ المؤلف على شوقى أنه كان يفتتح مدائحه النبوية بالنسيب ، ويرى أن هذا — على اقل تقدير — لا يتفق مع حسن المشاكلة وائتلاف النسق ، واذا كان كعب بن زهير قد بدأ قصيدته فى مدح الرسول بنسيب فقد كان رجلا قريب عهد بالجاهلية ، وقد كان ذلك الاتجاه أمرا يكاد يكون ملتزما عندهم .

ولا يغفل المؤلف الحديث عما فى شعر شوقى من جوانب اجتماعية تتصل بأوضاع المجتمعات المعاصرة ، فهو يتحدث عن شعر شوقى فى الوطنية والقومية ومحاربة الآفات الاجتماعية ، ثم ينتقل الى شعره فى « الاشتراكية » التى صارت اسمة لكثير من الشعوب اليوم ، ويقول فيما يقول عن شوقى :

« وينتقل الى الاشتراكية الالهية ، فيقسمها الى اشتراكية فى الرزق ، واشتراكية فى سائر النعم ، ويذكر أن الأولى تقوم على الجزاء والمعارضة لقوم ، وعلى الاشتراك والمعاونة لقوم آخرين ، فللعاملين المجدين كفاء عملهم وجدهم من بسطة الرزق ، ووفرة الخير ، وللكسالى المقصرين جزاء عدل من الحرمان ونضوب العيش ؛ وللمفكرين والضعفاء والمحدودين من الزكاة غياث ومدد ، ولهم منها مرضاة وعزاء ، لكن البخل يستبد بكثير من الأغنياء ، ويمنعهم أن يدفعوها الى أصحابها ، فيشتد عليهم البؤس ، ويشيع فيهم الحقد ، ويدفعهم اليأس الى التمرد على تصاريف القضاء ، والشاعر لذلك ضيق بالبخلاء ، يائس منهم ، بمقتهم ، وينعى عليهم التمادى فى القسوة والحرص ، مع كثرة ما وعظهم ، ووعظهم من قبله الدعاة والمصلحون .

وأما الاشتراكية الأخرى فيذكر أنها تقوم على المساواة الشاملة والعدل المطلق ، لا محاباة فيه ولا استثناء ، ثم يزجى لها أمثلة منوعة الصور ، متلاحقة السياق ، يبلغ فيها غاية مداه بيانا وافتنانا » .

ويستشهد لذلك بقول أمير الشعراء :

يريد الخالق الرزق اشتراكا ... وان يك خص أقواما وحابى
فما حرم المجد جنى يديه ... ولا نسى الشقى ولا المصابا
ولولا البخل لم يهلك فريق ... على الأقدار تلقاهم غضابا
تعبت بأهله لوما وقبلى ... دعاة البر قد سئموا الخطابا
ولو أنى خطبت على جماد ... فجرت به الينابيع العذابا
ألم تر للهواء جرى فأفضى ... الى الأكواخ واخترق القبابا
وأن الشمس فى الآفاق تغشى ... حمى كسرى كما تغشى اليبابا
وأن الماء تروى الأسد منه ... ويشفى من تلعلعها الكلابا
وسوى الله بينكم المنايا ... ووسدكم مع الرسل الترابا ؟

وينوه المؤلف بما توسع فيه شوقى من دعوة الى السماحة الدينية ، والائتلاف بين أبناء الوطن على اختلاف عقائدهم ، كأن يقول :

الدين لله ، من شاء الاله هدى ... لكل نفس هوى فى الدين داعيها
ما كان مختلف الأديان داعية ... الى اختلاف البرايا أو تعاديها
الكتب والرسل والأديان قاطبة ... خزائن الحكمة الكبرى لواعيها
محبة الله أصل فى مراشدها ... وخشية الله أسى فى مبانيها
وكل خير يلقى فى أوامرها ... وكل شر يوقى فى نواهيها !

وأبان المؤلف أن الشاعر الأكبر كان مضطربا فى موضوع « الحجاب والسفور » فتارة يهاجم الحجاب ، وتارة يخشى من السفور ، وتارة يشترط الثقافة والفضيلة وعفة الرجال لكيلا

يكون السفور خطراً ، وتارة يحيى السافرات الناهضات ... الخ .

ويذكر المؤلف أن قصيدة شوقى « بين الحجاب والسفور » ، والتى مطلعها :

صداح يا ملك الكنا
ر ، ويا أمير البلبل

ليست من الحجاب ولا من السفور فى شىء ، وانما هى قصيدة رمزية يناجي فيها الشاعر « ابراهيم الوردانى » قاتل « بطرس غالى » سنة ١٩١٠ ، ويرمز اليه بالطائر ، والى سجنه بالحجاب ، والى اطلاق سراحه بالسفور ، وكان هذا الموضوع جديرا بمزيد من التفصيل والتدليل .

وكنت أتمنى لو أن المؤلف الجليل أبان لنا أو علل اضطراب الشاعر الأكبر شوقى فى موضوع « صلب المسيح » عليه السلام ، لأننا نراه تارة يقول :

ولا مكان لعيسى عند مرسله
وحرمة وجبت للروح فى القدم
لسمر البدن الطهر الشريف على
لو حين لم يخش مؤذيه ولم يجم !

وتارة أخرى يقول :

يا حامل الآلام عن هذا الورى
كثرت عليه باسمك الآلام

أو يقول :

يا فاتح القدس خل السيف ناحية
ليس الصليب جديدا كان ، بل خشبا

ويبين الباحث ان الشاعر الأكبر كان يعرف لمكانة الأولاد قدرها ، وينوه بها فى مناسبات كثيرة ، وكان يدافع بحماسة عن البنات ، كأن يقول :

ان البنات ذخائر من رحمة
وكنوز حب صادق ووفاء
والساهرات لعلة أو كبرة
والصابرات لشدة وبلاء
الباكياتك حين ينقطع البكا
والزائراتك فى العراء النائى
والذاكراتك ما حيين تحدثا
بسوالف الحرمات والآلاء

ويعرض علينا المؤلف موقف شوقى من « الخلافة الاسلامية » فاذا هو مؤمن بها ، غيور عليها ، مفاخر بها ، مدافع عنها حين تتعرض للأزمات ، راث لها حين تنعى بين معالم الأفراح ، وحين يكفنها قاتلها فى ثوب الزفاف ، ويدفنها عند تبلج الاصباح ، واذا هناك ضجة المآذن والمنابر ، وبكاء الممالك ونواحها ، واذا الهند والهة ، ومصر حزينة ، وكذلك بقية بلاد الاسلام !! .

وينتقل الباحث الى القسم الأخير من كتابه وهو الحديث عن الأخلاق فى شعر شوقى ، وشوقى هو « شاعر الأخلاق » وبهذا اللقب تغنت الألسنة وسارت الركبان ، ولا عجب فلشوقى فى الأخلاق فرائد عاونت على اشتهاره بهذا اللقب ، ومنها هذه الأبيات :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت
فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا
المجد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لها الأخلاق كالعنوان
وليس بعامر بنيان قوم
اذا أخلاقهم كانت خرابا
واذا الأخلاق كانت سلما
نالت النجم يد الملتمس
واذا أصيب القوم فى أخلاقهم
فأقم عليهم مأتما وعويلا
صلاح أمرك للأخلاق مرجعه
فقوم النفس بالأخلاق تستقم
على الأخلاق خطوا المجد وابنوا
فليس وراءها للعز ركن ... الخ

* * *

وبعد أن يوسع الباحث القول فى تحديد معنى « الأخلاق » مستعينا بأقوال المعجمات وشواهد الفصحى ، ينتقل الى الحديث عن الوان الأخلاق فى شعر الشاعر الأكبر ، ويلاحظ أن الشاعر قد أخذ يتحدث عن الأخلاق وينوه بشأنها فى فترة اشتدت فيها الحاجة الى هذا الحديث ، ويعرض الباحث ألوانا من الأخلاق السيئة والطباع الشائعة التى حاربها شوقى فى شعره ، كتصابى الشيب ، والتفرق ، والخلاف ، والتهور ،

والجشع .. الخ ، كما يعرض الألوان المقابلة من مكارم الأخلاق .

وقد لفت نظرى أن المؤلف قد ذكر أن خلو المعجمات من كلمة لا يعنى أن هذه الكلمة ليست عربية ، وقال فى هذا : « خلو المعجمات من كلمة لا يعنى حتما أنها دخيلة مجتلبة ، ولكن قد يعنى أن أصحاب هذه المعجمات لم يقفوا عليها ولا اتصلت روايتهم بها ، وليس بعيدا أن تكون أصيلة معرقة ، يحتويها نص لم يتح لنا الاطلاع عليه » . وهذه ملاحظة قيمة .

وقد سبق لأمير البيان شكيب أرسلان قد كرر لفت الأبصار الى هذه الحقيقة ؟ ولو رجعنا الى الجزء الأول من كتاب « أمير البيان شكيب أرسلان » لوجدنا أن الأمير كتب سنة ١٨٩٩ فى مجلة « المشرق » يؤكد أن كتب اللغة ليست كل شىء فى تعريفنا بمفردات اللغة ، وفى سنة ١٩٢٤ عاد ثانية يؤكد هذا المعنى فى مجلة المجمع العلمى العربى ، وفى سنة ١٩٢٨ عاد اليه مرة ثالثة فى المجلة نفسها ، وفى سنة ١٩٣٠ عاد مرة رابعة فكتب يقول : « يظن بعض الناس أن كل كلمة لم ترد فى قاموس الفيروزابادى ، وفى صحاح الجوهرى ، وفى لسان العرب ، ليست من اللغة ، وأن استعمالها يكون خطأ ، ويتهجمون على الكاتب الذى يكون قد استعملها بالتجهيل والتنديد .

ويتوسع بعضهم فى الأمور فيضيف الى هذا المعاجم الثلاثة مخصص ابن سيده ، وأساس البلاغة ، والمصباح ، وتاج العروس ، فاذا كانت اللفظة لم ترد فى هذه المعاجم السبعة فهى عنده ليست من كلام العرب فى قليل ولا كثير .

وقد غلب هذا الوهم على أكثر الناس ، ونسوا أن مؤلفى هذه الكتب بشر مثلنا ، وأنه لا يمكن أن تكون تآليفهم أحاطت بكل شىء ، فلم تدع شاردة ولا واردة ، وانما نقل بعضهم عن بعض ، وقلد الآخر الأول فى الخطأ ، ونسوا أنه من المأثور أنه لا يحيط بلسان العرب الا نبى » . راجع تفصيل الحديث عن ذلك فى كتاب « أمير البيان شكيب أرسلان » ج ١ ص ٤٣٨ — ٤٤٤ .

* * *

وليسمح لى المؤلف المفضال أن أخلفه الرأى حين يذهب الى أننا رضينا بالوقوف الى جانب الحلفاء فى الحرب العظمى الثانية ، اذ يقول : « ومن اخطأ أن يظن ظان أننا فى موقفنا من الحلفاء لم نكن كراما مختارين ، ولكن أتباعا مكرهين ، فقد نزلت بهم فى أكثر سنى الحرب محن شداد ، ومرت بهم أهوال أثر أهوال ، تطيش لها الأحلام ، ويزل فيها الأخيار ، ويستيئس المتفائل الجسور ، ومع ذلك لزمنا مواقفنا فى هدوء ورباطة جأش ، ورضينا أن يظل مصيرنا مصيرهم ، وفاء بالعهد ، واستجابة لداعية النخوة والمروءة ، بل لم نشأ سماحة وكرما أن نتخذ من هذه المحن الجائحة فرصة للمساومة وكسب المغانم » ! ..

لا يا أخى الكريم ثم لا ثم لا ... الواقع اننا لم نكن راضين ، بل كنا مرغمين ، وكنا مغلوبين على أمرنا ، وكانت صدورنا تغلى بكراهية انجلترة طليعة الحلفاء ، ولكن كانت « العين بصيرة ، واليد قصيرة » ! .

اتذكر الشباب الذى اندفع فى تهور ذات يوم من أيام الحرب العصيبة يقول : « الى الأمام ياروميل » ؟ . ان هذا الصوت لم يكن يفضل احتلالا على احتلال ، ولكنه كان يريد أن يرى مصرع عدوه على أى حال . وكأنه كان يقول كما يقول المثل : « على وعلى أعدائى يا رب » .

وهل نسينا أن رئيسا للوزراء يومئذ اراد أن تنضم مصر الى الحلفاء فى الحرب ، فكان جزاؤه القتل على يد شاب مصرى اسمه « محمود العيسوى » ؟! ..

انى أذكر الآن أننى رثيت هذا الشاب بخطبة من فوق المنبر فى « مسجد المنيرة » على أيامه أطيب التحيات ، وكان لهذه الخطبة وقع لا يتسع هذا المجال للحديث عنه ! .

* * *

لا أحب أن يفهم المؤلف ، ولا أن يفهم القارىء ، أن هذه الملاحظات تغض من قيمة الكتاب ، أو تهون فى نظرى جهد صاحبه ، فالكتاب قيم ، والبحث ممتع ، والمؤلف ذوباع ، وما هذه الملاحظات الا كالكلف الذى يعلو وجه القمر حسب تعبير القدماء ! .

أحمد الشرباصى

الطاعون



تأليف : البير كامى
ترجمة : الدكتورة كوثر عبد السلام
مراجعة : الدكتور محمد القصاص
الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة
٣٩٢ ص ١٤×٢٠ الثمن ١٤

يحق للكثيرين أن يقولوا بأن قصة الطاعون هى معجزة ألبير كامى الفنية . فما فيها من أفكار عميقة بعيدة المرمى لا تنفصل عن قالبها الفنى الذى يدير أحداثها فى مدينة عربية بالجزائر قبل عهد استقلالها .

ويتخذ البير كامى لأغراضه الانسانية المطلقة الشاملة مستوى جزئيا يمكن أن يتتبعه القارىء العادى مهتما بأشخاص القصة وأحداثها الضيقة ان لم يكن ممن يعنون أنفسهم بالعموميات .

فالطاعون اذن من ذلك النوع من القصص الذى يتميز بتعدد الأبعاد أو تعدد المستويات . فمن شاء أخذ القصة مأخذا قريب المنال فى حدود « الحكاية » وما فيها من مصائر أشخاص معينين فى أماكن محددة وفى ضوء ظروف بعينها . أما من لا يطيقون الضحالة والخوض فى مياه الشواطىء قليلة الغور فسيجدون فى الطاعون مجالات بعيدة الغور ينتقل فيها الخاص الى العام ، ويدل فيها الجزئى على الكلى ، ففى هذه الأعماق تكثر التيارات القوية الخفيسة التى تتناول مشكلة البشر فى عمومها ازاء القدر وازاء الشر والألم . أو هى بعبارة أخرى مشكلتهم ازاء وجودهم . فالبير كامى من أقطاب المدرسة الوجودية الحديثة . بل لقد سبق زميله سارتر الى الفوز بجائزة نوبل بسنوات كثيرة .

فالوجود اذن بكل ما يتمخض عنه ويمثله من مشكلات للبشر هو الموضوع الذى يدور حوله هذا العمل الفنى . واختيار عنوان القصة حين سماها مؤلفها الطاعون . واختيار اطار القصة حين جعله المؤلف مدينة عربية فى مستعمرة مغلوبة على أمرها عندئذ وفى ظروف وباء لا يد لأحد فيه وان كان الجميع ضحية له يستوى فى ذلك الفاضل والمفضول والبرىء والآثم ، كل ذلك يوحى ولا شك بموقف محدد للمؤلف من أزمة الوجود البشرى عموما . فهو وجود يشوبه القلق والحرج والحيرة ، وجوه جو وباء غير مفهوم الأسباب ولكن لابد من مواجهته ومعاناته على أى وجه من الوجوه ، مهما اختلفنا فى وسائل هذه المواجهة واحساسات هذه المعاناة ...

ان الاشرار يواجهون أزمات الوجود ــ أى الشر والقبح فى العالم ــ بالانتهازية والأنانيــة وتجــارة السوق السوداء والتبذل البهيمى . وهذا موقف واضح كل الوضوح مفهوم الدوافع والغايات كل الفهم .

أما المؤمنون بالله فالمســألة بالنسبة لهم ــ فى هذه القصة ــ أصعب وأشق . لأن وجــود القبح والشر فى العالم يقدح فى العناية الرحيمة التى تصوغ مصائر البشر . وهنا يجد المؤمنون ايمانهم موضع امتحان عسير جدا . فالقسيس فى الرواية لا يجد جوابا عن هذا السؤال الحائر : لمــاذا يسمح الله بالشر ؟ لمــاذا يتعذب الأبرياء الطاهرون بلا ذنب ولا تحرك عناية الســماء ساكنا ؟ أى نوع من العناية هذه ؟ .. وعلى المؤمن عندئذ كى ينقــذ ايمانه أن يجعله ايمانا بغير حــدود ، وبغير شروط . عليه « الا يمتحن أو يجرب الرب الهه » كما يقول الانجيل . عليــه أن يسلم بالايمان تسليما ، وأن يتقبل كل ما يجرى فى الوجود من عذاب وأهوال على أنه ارادة الله ــ وغايات الله غير مدركة ــ فلا يتذمر منها ، بل ينقاد لها فى حب صوفى فدائى يتسم بالشجاعة . وبذلك لا يرفض المؤمن الألم أو « التجــربة » ولا يلوم السماء لأنهــا « لم تعفه من تلك الكأس المريرة . كأس العذاب والموت » .

وهذه هى شجاعة الايمان الكبرى .. التى ينوه بها كامى الملحد ، مبرهنا بذلك على أن الفنان الحق يعرف قيمة كل عمل مجيد ، حتى ولو لم يوافق على هذا العمل أو يقبله أو يقتنع به .

أما من لا يؤمنون بالله ــ وهــذا هو الموقف الفكرى لكامى نفسه ومن على مذهبه من المفكرين الوجــوديين الالحاديين ــ فيجــدون من واجبهم مقاومة الشر حتى من غير أمل فى استئصال شأفته بصفة نهائية ، فكل ما يصبون اليه هو الانتصار الجزئى الذى يقضى على موجة وباء معينة ، الى أن تأتى موجة وباء من هــذا النوع أو من نوع آخر ــ فما أكثر كوارث البشرية ــ ولكنهم لا يعرفون اليأس ، ويقومون بالواجب لا ايمــانا منهم بالله أو بقوى فوق البشر ، بل ايمانا منهم بالانسان ، وبقيم مستمدة من العقل والضمير البشريين .

فالبشر فى نظرهم هم الذين يصــنعون القيم ، والحقيقة ، والخير ، والعدل . ومن أجل الانسان يجب أن يكون الكفاح بلا تردد ، وبلا خــوف ، وبلا يأس ، مع عدم الاعتماد على سند من قوى أخرى غير روح الانسان نفسه ، لأنه لا وجود ــ فى عرفهم ــ لتلك القوى العــلوية . وشعار هؤلاء الأبطال البشريين هو « الواجب نحو الانسان » .

فالقصة اذن معترك فكرى جياش بالحيوية ، تتصارع فيه الآراء داخل اطار مأسوى أقامته بدقة واحكام يد فنان تموج نفسه بأزمة الانسان الفكرية والضميرية . فكأننا أمام بناء تراجيدى من قبيل ما شــاده للخلود شــعراء الاغريق الأقدمون الذين تركوا لنا تراثا عظيما حين كتبوا مأساة البشرية كلها فى صورة مآسى تقر من الناس معدودين ، من أمثال أوديب والكترا وأفيجينيا .

والآن نعرض القصة من حيث أسلوبها فنجد البساطة والوضوح صفتين مميزتين لذلك الكاتب مع تحر للواقعية يبعد به عن المبالغة أو الافتعال فى الوصف أو السرد أو الحوار .

فالأســلوب عصرى خال من الزخرف تمام الخلو ، تبدو فيه « موضوعية » الفنان ، فلا ترى صورته أو صوته يبرزان . وانما هو مخرج يرفع أمامنا الستار عن ممثلين ومشاهد ، ويخلى بيننا وبين صورة الحياة نتملاها من وراء ذلك الجدار الرابع المرفوع ــ كما يقول أهل المسرح ــ فهو خالق يترك خليقته الفنية تعيش حياتها المقدرة لها بدقة شديدة ، ولا تلمحه الا بأعمال الفكر حين يرتسم فى احساسنا المغزى الذى يرمى اليه هذا العمل الفنى .

وهذا شىء يبعد بالقصاص العظيم عن الوعظ المبتذل أو الخطب الرنانة . فما أســهل ذلك ، ولكن ما أبعده عن موضوعية الخالق الفنى بالمعنى الحديث ، بل بكل معنى سليم فى سائر العهود .

وقد فرضت عليــه هذه الموضوعية مراعاة التناسب ، فحيث يعم الطــاعون لابد أن تبدو الأحداث الأخرى ــ مهما كانت صاخبة ــ باهتة اللون ضئيلة القيمة نسبيا ، يرويها المؤلف بلهجة

عابرة وفى غير اكتراث ، مدخراً اكتراثه كله وحرارته كلها لا للحوادث التى تجرى فى الخارج ، بل للصدى الذى يتردد فى الوجدان وفى الضمير حول حكمة الشر ، وحكمة الموت . أن الضمير هنا هو المسرح الحقيقى للأحداث الجسام . أما المصادمات فى الشارع ، والمظاهرات والعنف الحيوانى أو المادى فلا قيمة لها فنيا . وبذلك خلق المؤلف جوه الفنى الخاص ، وفرضه على القارىء فرضا .

والآن نوجز الرواية نفسها فى سطور :

ان المدينة الصغيرة التى تقع فيها أحداثها هى « وهران » ، المدينة الجزائرية الساحلية التى عرفت بهدوئها المطلق الى أن بدأت الفيران الميتة تظهر على سلالم عماراتها النظيفة فى الحى الراقى ، ثم لفتت الأنظار بكثرة فى الحوارى والبيوت الحقيرة فى الحى الآخر الذى يسكنه أهل البلاد الأصليون .. لا المتوطنون من الفرنسيين . ولم يلبث الفار الميت أن تكشف عن اصابات بالطاعون ، لم تكن متوقعة فى هذا البلد النظيف وبائيا حتى الآن ، ولذلك لم تكن ثمة استعدادات طبية كافية ولا أمصال ولا عقاقير . وكان لابد من الاستنجاد بذلك كله من باريس عاصمة الامبراطورية التى تركزت فيها كل السلطات ... بعد أن بلغ عدد الفيران الميتة نحو عشرة آلاف فى يوم واحد ! .

وبانتشار نبأ الوباء ــ الذى حاول الطبيب ربو كتمانه بادىء الأمر ــ انتشر الذعر بين السكان الآمنين . أما الطبيب فكان يعيد التحليل فى المعمل ويتكرر تأكده من وجود ميكروب الطاعون فيكاد يجن ، لأنه لا يعرف سببا عقليا لوفود هذا الوباء الى وهران بالذات .

وكامى يشير بهذا الى موقف الانسان بعقله العلمى من مشكلة الشر عموما ، ومن الكوارث التى لا يعرف لها سببا منطقيا . واشارة الى النظرية الجديدة التى تنادى بأن الوجود يسوده العبث ويسيطر عليه ، وليست السيادة فيه للعناية أو الحكمة الالهية ! .

وينضم الى الطبيب عدد من العقلاء محبى الخير للناس ، منهم القس ، ومنهم « چوزيف » المؤلف الصغير الخجول الفاشل فى حياته الذى يعجز عن جلائل الأعمال التى يتمنى القيام بها ولكنه بارع فى تأدية عدد لا يحصى من الخدمات الصغيرة . ولا شك فى أن كامى يرمز بجوزيف هذا الى قطاع ضخم من الطيبين محدودى القدرة عقليا ، ولكنهم ذوو قلوب كبيرة . انهم « السواد الأعظم » أو « كتلة » ذوى النيات الطيبة والدوافع الشريفة والمواهب المتواضعة .

وينضم اليه فى جهاده أيضا المواطن « تارو » ــ وفى حسبانى أنه أقرب الى تمثيل شخصية كامى نفسه وموقفه من الحياة ــ فهو رجل حصيف العقل شديد الحساسية مفرط الشعور بالمسئولية نحو الانسان ، من غير أن يكون مؤمنا بالله ، ولا بالدولة من حيث هى سلطة حاكمة طبقية . فتارو كما قال عن نفسه فى الرواية « ضال أنا فى ظلمة الليل ، التمس نورا يهدى باصرتى » فهو العقل الحائر الباحث عن الحقيقة فى شوق ورغبة صادقة .

وفى مقابل هذا المعسكر الذى يلتف حوله الأطباء وأهل المعرفة والمكانة على درجات متفاوتة من الحماسة للتعاون مدفوعين غالبا بالخوف على أنفسهم ، نجد معسكرا آخر هو معسكر من لا يدركون جسامة الكارثة المحدقة بهم ، فهم سادرون فى لهوهم ومعاشهم ، لا يهمهم الا السخط على الحصار الصحى الذى ضرب على بلدهم فتعطلت التجارة وقلت الأقوات وتثاءب السأم مع طول العزلة عن الدنيا ...

وأفراد هذا المعسكر يمثلون سواد البلهاء من البشر الذين يعيشون من غير ادراك سليم لما ينطوى عليه وجودهم من أزمات عامة شاملة للجنس كله ، لأنهم لا يهتمون الا بأنفسهم .

ووسط قطعان هذه « السائمة البشرية » توجد فئة من « البراغيث » التى تمتص دم الخراف والماشية . وفئة البراغيث الآدمية تتمثل فى « كوتار » تاجر السوق السوداء . فحالة الحصار نشأت منها على الفور عصابات للتهريب

مستهينة بالقـــانون وبخطر الوباء وبكل شيء فى ســبيل الربح السريع الفاحش . ولم يكن من مصلحة هذه الفئة طبعا أن ينتهى الوباء فتنتهى بذلك فرصتها فى الاثراء . مع أن نفرا منهم يلقون مصرعهم فى هذا السبيل اما بالوباء أو بالرصاص اثناء التهريب . ولكن من يسقط يدوسه اخوانه ويستمرون فى سباقهم المسعور نحو الثراء .

تجار المصائب هؤلاء هم وباء البشرية حقا ، وهم رمز لتجار الحروب وتجار السياسة وتجار الرقيق وكل أنواع التجـــار الذين يفسدون فى الأرض كى تكون لهم فى الفساد أبهة ودولة .. !

وفى مسرح هذا الكفاح العجيب الذى يذكى فيه البعض النار فى حـــين يحاول البعض الآخر أطفاءها نجـــد ألوانا من البطولة والتضـــحية والانحطاط والبلاهة مصورة فى براعةوموضوعية آسرتين . ونجد جدلا فكريا نابعا من حـــرارة المواقف المأسوية .

وفجأة يبرز عامل أكثر اثارة للنفس والعقل، هو ذروة مشـــكلة الشر فى الرواية كلها ، أو فى الوجـــــود البشرى ان شئت : فهذا طفل وديع جميل برىء ، ابن قاضى المدينة ، يصاب ــ لا أحد يدرى كيف ــ بالعدوى . والى جانب فراشه رسم كامى صورة تتقطع لها نياط الفؤاد لطفل برىء جميل يتعذب عذابا لا طاقة له به ، ويبكى لأنه متعلق بالحياة ولا يريد أن يموت ! .

وحول فراش « الشـــهيد » ــ شـــهيد عبث القـــدر ــ كان ممثلو المعسكرات الفكرية كلها : القسيس ، والطبيب ، والمفكـــر تارو ، واهله المرزأون . ولم يكن أمامهم الا أن يواجهوا فى موته الصورة الكاملة للمسئولية عن هذه القسوة التى لا مبرر لهـــا . والتى توحى بأنه ليست ثمة مسئولية ، بل « خبط عشواء » .

انها « العشوائية اذن » !

وتمسك القس بايمانه فى بطولة ، فلما حضره المرض لم يحاول العلاج ليثبت أنه مؤمن بارادة اله موجود قادر مريد حكيم ! أما الطبيب والمفكر فمضيا فى كفاح المرض بلا ايمـــان الا بالواجب نحو الانسـان ــ واجب محدود بالزمان والمكان وطاقة الامكان . واجب ينبع من الضمير ، ولا غاية له الا الضمير ، بدون وحى ، وبدون انتظـار لمثوبة أو جزاء وراء حدود هذا العالم .

والترجمة العربية امينة ، وهى مزية تحمد على كل حال ، وان كانت لا تغنى عن « اللمسة الأدبية » التى لا تتأتى الا لمن يجمع بين براعة المترجم وفن الأديب وتذوقه وحسه اللغوى ، فى لغة غنية بالظلال والأضواء كلغتنـــا . ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله . ولا تثريب على من بذل أقصى ما يستطيع . وقـــد بذلت المترجمة الفاضلة جهـــدها كله ، وهى على هذا الجهد بالثناء جديرة .

صوفى عبدالله

سطور من كتاب . . . .

« ان انتشار السرطان فى البلاد « المتحضرة » وازدياده خلال الســـنوات الأخيرة قد أدى الى الراى القائل بان السرطان « مرض الحضارة » . ويزعم هذا الراى بأن تعقيدات الحياة الحديثـــة مسئولة بطريقة ما عن انتشار السرطان . وقد تساعد بعض نواحى الحياة الحديثة على ظهور أنواع معينة من السرطان .... وحيث ان مثل هذه المزاعم لاتعتمد على دليل علمى أو اثبات . فان الأشخاص الذين يروجونهـــا لا يتفقون على سبب واحد بالذات للسرطان . »

. . . حقيقة السرطان



كتاب فى الطريق

مع وزير البحث العلمى

وسرت فى الطريق السادس .. الى قلعة عصرية من غرس ثورتنا .. لا ترد من يطرق بابها ، وانما ترحب به فاتحة مصرعى الباب الكبير .. فتحتضنه بين معاملها .. لانها قلعة ذخيرتها العلم ، وسلاحها البحث والاكتشاف . ودخلت المركز القومى للبحوث .. فالتقيت بجنوده .. اقصد بعلمائه ذوى المعاطف البيضاء .. كل فى شغل شاغل بذخيرته وبسلاحه .. فلا وقت لديهم للقيا أو حديث . لكن شعورا غريبا من الاطمئنان والقلق تملكنى .. فنظرة واحدة اليهم تكفى للاطمئنان على مستقبل وطننا .. لكن هذه النظرة نفسها تقلقنى على نجاح مهمتى فى لقاء مع كبير العلماء .. فهل نجحت فى اقتناص لحظات من وقته الثمين ؟ هذا ما سنراه .

جمال بدران

فيم تبحث الآن .. ؟ ..

هذا سؤال يدعو الانسان الى التكلم فى موضوعات قد لا يهتم بها غير المتخصصين .. فما ابحث فيه الآن هو ما بدات البحث فيه وشغلنى منذ ربع قرن .. ذلك هو ما يسمى بالسلوك الكهربائى فى الأجسام .. وهو بصفة عامة كل ما يتصل بالكيمياء الكهربائية .. انه موضوع شامل .. معناه سلوك المواد تجاه التيار الكهربائى .. فقد يدفع الانسان بهذا التيار الكهربائى فى المادة مستهدفا اجراء تجربة، وقد ينظر له كظاهرة موجودة فى الطبيعة فعلا — لأن هناك قاعدة تقول « ان أى جسمين متقابلين فى الطبيعة يتولد بينهما تيار كهربائى » .

هل كنتم تفكرون فى هذا الموضوع طوال هذه الفترة أم نبتت منه مسائل أخرى ؟

فى كل موضوع للبحث العلمى .. يقابل الانسان مشكلة علمية فيحاول البحث عن سببها وكيفية التغلب عليها ، وتتولد من هذه المحاولة مشكلات اخرى تؤدى بدورها الى فتح مجالات أخرى للبحث .. وهكذا ظللت طوال هذه المدة .

هل من الضرورى أن يسبق الفكر مرحلة البحث التجريبى أم لا .. لماذا ؟

لا .. قطعا .. فالمرحلتان متلازمتان ومتكاملتان .. ولا تسبق احداهما الأخرى ..

هل كل كشف علمى وليد الصدفة ، أم سبقت كل صدفة محاولات هادفة ؟

اذا تتبعنا الثورة العلمية الأولى التى بدات فى اواخر القرن الثامن عشر .. أى بعد كشف آلة البخار .. اقول لك ان كشف هذه الآلة كان وليد الصدفة ، اما المرحلةالأخرى..مرحلة تحسين آلة البخار فلم تكن وليدة الصدفة .. كانت معتمدة على التجربة والخطأ .. وهذه أيضا ليست مرحلة علمية .. لأنها لم تكن خاضعة لقوانين يمكن التنبؤ بمقتضاها . ثم بدات الثورة العلمية الثانية بعد منتصف القرن التاسع عشر .. فنجد ان الصدفة قد ضعف شأنها .. لأن قوانين علميةقد كشفت فنظمت عملية البحث العلمى .. مثل قوانين الرياضيات وقوانين نيوتن فى الطبيعيات وسير الكواكب مثلا .. فقد كان من المعروف سلفا ان نجم اليورانوس مثلا هو أبعد نجم فى المجرات .. وعندما طبقت هذه القوانين على هذا النجم وجدت انحرافات طفيفة فى حساباته ، وبالبحث تبين أن السبب فى هذا هو وجود نجم آخر اكثر منه بعدا هو نبتون . خذ مثلا آخر حديثا .. فتفجيرات الطاقة الذرية لم تقم على الصدفة أبدا وانما على التنبؤ العلمى الخاضع للقوانين وحساباتها الدقيقة . ومن هذا يتضح لك أن الصدفة تكاد أن تكون قد انتهت فى العلوم

المضبوطة Exact Sciences وهى الرياضيات و (الفيزياء) والكيمياء . اما العلوم غير المضبوطة مثل البيولوجيات (علوم الحياة) . واقول انها غير مضبوطة لانها لاتخضع لمجموعة من القوانين .. والقوانين بطبيعتها العلميـة ودقتها تتطلب حالة من التوازن تتعارض مع نمو الانسان .. الذى هو مجال بحث البيولوجيات .. فالصدفة فى هذه المجالات لا زال لها شأنها .. لديك مثلا البنسيلين .. اكتشافه الحديث تم بطريق الصدفة .

عندما يصـل الباحث الى مرحلة الفرض العلمى .. هل نعتبر انه قد تعدى مرحلة الفكر، كيف ذلك ؟

الفرض العلمى والفكر .. كلمتان فيهما نظر .. كل بحث علمى يحتاج الى قدرة على التصـوير Immagination فاذا كانت قـدرة التصور سليمة فى حد ذاتها ، يستطيع الباحث ان يصل الى نتائج علمية سليمة .. وخاصة فى الاشياء التى ليست لها نماذج محددة .. لدينا مثلا الباحثون الذين يقومون بالتجارب العلمية التى كلفوا بها ، ويسجلون النتائج التى يشاهدونها من هذه التجارب ، ولكن عملية الربط بين هذه النتائج تحت حكم عام أو قانون عام هى التى تحتاج الى قدرة على التصور .. اى ان الفرض العلمى هنـا يتوقف على قدرة أو عبقرية الباحث أو العالم .. لذلك فاننا قبل ان نقدم على القيام ببحث علمى .. لابد لنا أولا من رسم خطة لعمل هذا البحث ، اى نحدد نوع التجارب الخاصة به ، ثم نجرى كل تجربة ، ثم ندون الملاحظات المصاحبة لهذه التجربة ، واخيرا لابد من استخلاص نتيجة من هـذه الملاحظات المدونة .

لو قلنا أن جيل فيرن ، هـ . ج ويلز لهما بعض الفضل فى توجيه الأذهان الى مجـالات علمية جديدة أفاد منها العالم .. فهل هـذا صحيح ، وما حقيقة دور الخيال العلمى ؟

أنا لا أستطيع ان أسلم بهذا اطلاقا .. لأنه لا صلة بين هذا الخيال وبين العلم .

ان كان فى الامكان تحديد موقفنا من البحوث العلمية الجادة .. فما هو باعتبـارنا مجتمعا عربيا متطلعا للعلوم ؟

التحديد هنا يحتاج الى مقياس .. فما هو المقياس الذى ينظم لنا هـذه العملية ؟ .. لو اخذنا نسبة عدد الباحثين فى الدول الاوروبية لوجدنا انه يوجد مائتا باحث لكل مليون نسمة، ولو اخذنا على عاتقنا الوصول الى هذه النسبة .. فاننا سنتمكن من ايجـاد ١٢٠٠٠ باحث فى الجمهورية العربية المتحـدة فى عام ١٩٧٥ .. وهذا مؤكد حدوثه .. فلو سرنا فى تخطيطنـا العلمى فى الخطط الخمسية القادمة بهذا المستوى بعد ذلك .. فاننى اقول لك اننـا نتساوى مع المجتمعات العلمية العالمية .. يبقى بعـد ذلك تعريف الباحث .. فمن هو ؟ .. من القسـوة أو من التعنت أن نقصر هذه الكلمة على حامل الدكتوراه أو الماجستير .. فالباحث هو الذى يمضى عليه فى البحث العلمى منـذ تخرجه من الجامعة ثلاث سنوات ، ونستطيع القول بأن من يمضى عليه عامان فى كل بحث علمى نسميه باسم « يعمل بالبحث » .

هل فى الامكان تحديد خطـة للتفكير العلمى فى مجتمعنا .. حتى يكون التقـدم متكافئا فى مجالاته كافة ؟

التفكير العلمى المنهجى يجب أن يكون خاضعا للقوانين التى تحكم هذه البحوث فى الطبيعـة وظواهرها .. مثل قوانين الرياضة والطبيعة والكيمياء . انما العلم غير الطريقة العلميـة فى التفكير .. فانا عندما اقول ان هـذا الشخص ذو تفكير علمى .. معناه ان هذا الشخص يتسم بعقلية دارسة للعلم وقوانينه تؤهله للقيـام بتجارب علمية .. فكيف نوجد هذه العقليات الدارسة للعلم .. هنا أحب أن أقول انه لم يعد هناك داع للاعتماد على ارسال بعثات للخارج .. ولابد من الحد من ذلك وقصر البعثـات على المجالات التى لا زلنا فى حاجة الى ارسال بعثات فيها .. لأننا الآن فى مرحلة تكامل أو فى الطريق الى التكامل العلمى .. ولهذا فان الانطلاق الى

ذلك التكامل العلمي يقتضى الارتكاز على قاعدة من الاكتفاء الذاتي لامكانياتنا العلمية أولا ، ثم الامتداد ببعثات الى الخارج دارسة لما نحن فى حاجة الى التزود منه بعدئذ .

اننا نلحظ أن تأليف الكتب العلمية قليل لدينا .. فهل يرجع هذا الى عدم تشجيعها أم الى طبيعة الباحثين العلميين وضيق أوقاتهم ؟

ان كنت تقصد الكتب الدراسية فلا نقص فيها ، أما ان كنت تريد كتب البحوث العلمية .. فهى مرتبطة بقدر هذه البحوث ومدى تكاملها حتى تستحق التسجيل فى كتب أو رسائل .. صحيح أن الوقت عنصر هام أمام الباحث اذ يكفيه ان يسجل نتيجة التجربة التى يجريها، لينتقل منها الى التجربة التى تليها .. وهكذا معنى هذا انه لا يجد أمامه الوقت الكافى ليتفرغ فيه لتأليف كتاب عن بحوثه التى قام بها .. الا اذا كان هناك مساعد يحمل عنه هذه المهمة .. ولابد طبعا من توفر شروط معينة فيه ..

هل معنى هذا أننا فى حاجة الى عنصر التحرير العلمى أو الناشر العلمى كالمتبع فى أوروبا .. أم ماهو العلاج ؟

هذا موضوع هام جدا .. موضوع التحرير العلمى أو الناشر العلمى .. نحن فى شدة الحاجة الى مثل هذا النوع .. ولكن لابد من وضع أسس تنظمه حتى يكون متكافئا مع ما تتطلبه البحوث العلمية من دقة وتكاليف .

سؤال أخير ومعذرة .. لو طلب منكم عمل كتاب يعالج هذه النواحى .. فهل توافق ؟ ما السبب ؟

كنت أرجو ذلك .. لكن ضيق الوقت وطبيعة عملى كما ترى الآن .

ولم أملك الا أن أقول .. ان هذا ليحتم وجود محرر أو ناشر علمى ..

لقاؤنا فى الشهر القادم مع . . .
الدكتورة سهير القلماوى

تمر الأعوام متقاصرة أحيانا ، وتمر متطاولة أحيانا ، تقصر وتطول لا فى البعد الزمنى الذى تحتوى على أجزائه ، بل فى الأحداث التى تقع فيها . فان كانت أحداثا متقاربة مترابطة كان الزمن قصيرا أو الاحساس به كذلك ، وان كانت أحداثا متباعدة متدابرة كان الزمن طويلا أو كذا يخيل الى من يعيشه أو يتأمله . وكانت الأعوام المتقاربة الأحداث مرحلة زمنية واحدة ، وكانت الأعوام الأخرى بدء مرحلة جديدة .

وتتغير المجتمعات فى المراحل المتخالفة فيتغير ما تخرج من آثار ، يهمنى منها الآثار الأدبية . فيختفى بعضها ، ويظهر غيرها لم يكن له وجود قبل . ولكن بعض الآثار تغالب الزمن وتبقى فى مرحلتين أو أكثر .

ومن أقدم ما أصدر الأديب العربى «الكتاب» فلدينا من الأقوال ما نستدل به على ظهوره فى أواخر القرن الهجرى الأول . ولا يقل قدما عنه الكتاب الصغير أو المقال الطويل ، الذى كان القدماء يسمونه « الرسالة » . وأمثل للرسائل الأولى برسالة ولى العهد التى كتبها عبد الحميد ابن يحيى الكاتب فى أواخر العصر الأموى ، أى فى مطلع القرن الثانى . وتتعارض أقوال النقاد والمؤرخين فى المقال القصير ، فيذهب بعضهم الى

وجوده بصورة ابتدائية فى الأدب القديم ، وينكر ذلك غيرهم .

ومهما كان الرأى الذى نميل اليه ، فلا خلاف فى أن الأدب العربى يضم مثل كتب الجاحظ والتوحيدى ، ومقالات أو رسائل عبد الحميد والجاحظ ، التى انتزعت اعجاب كل من تصدى لها . ولكننا حين نجمع على الاعجاب بها نجمع أيضا أو نكاد نجمع على الاعراض عن أى كتاب أو مقال يصدره كاتب معاصر ، يحتذى فيه هذه الكتب والمقالات احتذاء تاما . ولسنا نعرض عنه لأننا نفضل الأصيل على التقليد بل لغير ذلك من الأسباب .

فالأثر الأدبى القديم قيمته فى ذاته ، أعنى فيما يحمل من خصائص فنيــة ، ومن دلالات تربط بينه وبين كاتبه ؛ وتكاد تكون تلك قيمته الوحيدة .

وقد تضاءلت قيمــة ذلك النوع من الكتب والمقالات فى العصر الحديث ، وتأخرت منزلته . وشغل محله الكتب والمقالات التى تقوم قيمتها على ما تحمل أو تضم من آراء أصيلة . فلم تعد قيمته ادبية حسب ، بل ادبية وفكرية ، ولعل الأجدر أن أقول فكرية أولا ثم أدبية .

ولست أعنى بالأصالة الدلالة الصادقة على الكاتب فحسب ، بل اعنى بها ذلك واعنى بها فى الوقت نفسه الابتكار او القسط الجديد الذى اتى به الكاتب ولم يكن عند غيره ممن تعرضوا للموضوع الذى يكتب عنه .

فالكتاب الحديث اذن بحث طويل ، والمقال الحديث بحث قصير ، أى أن كلا منهما بحث . وكل بحث لا يأتى بجديد لا يليق باسم البحث .

والجديد .. لا يمكن الاتيان به ، واعطاؤه قيمته ، وما يجدر به من عرض ، الا بعد الاطلاع على ما كتبــه غيـر الباحث أولا ، بل أريد أنه لا يمكن ذلك الا بعد استقصاء الاطلاع على ما كتبه السابقون على الباحث عن موضوعه الذى يبحثه ويكتب عنه .

فاستقصاء الاطلاع هو الخطوة الأولى فى كل بحث . بل لا أغلو اذا قلت ان استقصاء الاطلاع ، ورهافة الحس ، ودقة التنبــه الى ما فى بطون الحقائق ، وحسن الاستنباط ، هى البحث كله ؛ وأن استقصاء الاطلاع ، والتقاط الحقائق ، وتنسيقها هى الجهــد كله ؛ وما وراء ذلك من تدوين لا يستلزم من المشقة والوقت غير القليل .

يؤدى ذلك الى أن التعرف على مراجع البحث من أهم الأمور ذات الأثر البعيد فيه . فان نقص مرجع او اكثر قد يؤدى الى أن يفقــد البحث اصالته ، ويكون تكرارا لا جديد فيه ؛ أو يتنكب طريقه فيدعو الى آراء خاطئة ؛ أو يضل فيحتضن حقائق مشوهة مبتورة .

ومن أجل هذه الأمور وغيرها عظمت العناية فى العصر الحديث بالمراجع ، وبطرق معاملتها . وكان على رأس هذه العناية الكتب التى تحاول ان تدون قوائم تتسم بالشمول والاستقصاء عن موضوع او ظاهرة أو شخص . وكلما اتسع نطاق مثل هــذه القوائم ، ودق استقصاؤها ، عظمت قيمتها .

ولجأت بعض الدول الى انشاء مؤسسات خاصة يناط بها جمع ما يمكن جمعه من أسماء المراجع فى موضوع معين او الموضوعات المختلفة ، واصــدار القوائم المتتابعــة بها ، لتمكن العلماء المطلعين عليها من متابعة ما يصدر من أبحاث فى العلوم أو الفنون التى اختصوا بها . ولا تقصر تلك المؤسسات على ما يصدر من أبحاث بلغــة واحدة ، بل تتبع كل ما يصدر فى كل لغة من لغات العالم . وتتجاوز بعض المؤسسات ذلك العمل الى وضع مختصرات من هــذه البحوث المدونة باللغات الأجنبيــة ثم توزيعها على المؤسسات المختصة بدراسة موضوعاتها .

وفى الجمهورية العربية المتحدة بذلت جهود فردية لاستقصاء مؤلفات بعض الفلاسفة وعلماء الاجتماع كابن ســينا وابن خلدون . ولكننى لا أعرف جهــدا بذل لاستقصاء مراجع موضوع ما استقصاء تاما .

ويبدو أن الأمر كذلك فى العراق . قام بعض الباحثين بمحاولات فردية لوضع فهارس وأثبات

مطبوعة . ولكنها كانت محاولات لا تقوى على نجدة الباحث بصورة تدعو الى الارتياح .

والحديث عن العراق لا يمكن أن يشوبه غلو . فمهما قال الباحث ، فالدور الذي اضطلع به العراق في التاريخ الاسلامي ، والقسط الذي كان له في الثقافة الاسلامية ، من الجلاء والعظمة بحيث لا يمكن أن ترد أي الخاطر صورة الحضارة الاسلامية دون أن ترتبط بها صور البصرة والكوفة وبغداد ، أو بغداد أولا ثم المدينتين الأخريين ، ثم غيرهما من المدن العراقية .

وقد صدرت حقا دراسات جادة تناولت الجوانب المختلفة من العراق عامة ، وبغداد خاصة ، مثل تاريخها الجغرافي ، وتاريخها الاقتصادي ، وتاريخها السياسي ، وتاريخها الأدبي ، وتراثها الشعبي ، وغير ذلك من اتجاهات نشاطها العلمي والفني . ولكن قوائم تحاول أن تستقصي كل ما يتصل بها من دراسات لم تصدر قبل كتاب « جمهرة المراجع البغدادية » الذي جمع مادته ، وأعده ، ونسقه السيدان كوركيس عواد ، مدير مكتبة المتحف العراقي سابقا ، وعبد الحميد العلوجي ملاحظ الثقافة في وزارة الارشاد ، اللذان حاولا أن يجعلاه « فهرستا شاملا بما كتب عن بغداد منذ تأسيسها حتى الآن » ، أي ببليوجرافيا كاملة عن بغداد .

ومن أجل هذا العمل الجبار راجع الكاتبان فهارس المخطوطات العربية والاسلامية المحفوظة في مكتبات الشرق والغرب ، ولا سيما في بغداد والموصل ودمشق وحلب وبيروت والزيتونة والجزائر وتطوان والقاهرة والاسكندرية وطهران ومشهد والبصرة والنجف واستانبول وباريس وليدن وبرلين وفينا والفاتيكان وميلانو ومدريد والاسكوريال وليبسك ولينينجراد وطشقند ونيوهافن وفيلادلفيا ونيويورك والكونجرس الأمريكي وبهار وبانكي پور وبومباي والمتحف البريطاني وكمبردج وتشستر بيتي والمكتب الهندي في بريطانيا ، والمتحف العراقي .

وتتبعا ما ذكرته الببليوجرافيا من عناوين كتب ومقالات ، مثل كشف الظنون لحاجي خليفة ، وذيله لاسماعيل باشا ، والذريعة لأغا بزرك ، وفهرست ابن النديم ، ومعجم المطبوعات العربية ، واكتفاء القنوع ، من الكتب العربية ؛ وكتاب تاريخ الأدب العربي لبروكلمن ، وفهرست ايرج افشار ، وكتاب Indx lalamicus للمستشرق الانجليزي بيرسون ، وكتاب Bibliographie des Ouvrages Arabes etc- للمستشرق الفرنسي شوفان .

والتقطا ما ذكرته الكتب العامة ودوائر المعارف مثل معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ، والأعلام للزركلي ، وقاموس الأعلام لشمس الدين سامي ، وعشما نلرى مؤلفلرى وغيرها .

وقد أحصى الكاتبان ما رجعا اليه من مصادر فكان ٤٣٩٩١ مصدرا ، موزعة على النحو التالي :

٤١٦٠٠ كتابا مطبوعا باللغة العربية وغيرها .

٥٦٠	مجلة عربية
١٠٢٨	مجلة أفرنجية
٢٥	مجلة شرقية
١٨٣	صحيفة
٤٦٥	نشرة رسمية وشبه رسمية
١٣٠	مخطوطا

وعندما فرغا من جمع مادتهما وضعا أمامهما نهجا يسيرا لتنظيمها . فقد جعلا الكتاب في قسمين : الأول منهما يحتوي على المراجع العربية أو المكتوبة بحروف عربية كالفارسية والتركية العثمانية والكردية . والثاني يحتوي على المراجع الافرنجية ، ويندرج تحتها مختلف اللغات الأوربية واللغة التركية الحديثة .

وفرعا كل قسم من هذين الى قسمين أيضا : خصصا الأول منهما للكتابات المذكورة أسماء مؤلفيها ، والثاني الكتابات الغفل التي لا يعرف مؤلفوها .

ورتبا الفرع الأول من كل قسم تبعا لاسم المؤلف على الألفباء ، والفرع الثاني منهما تبعا للعنوان وعلى الألفباء أيضا .

وراعيا في ترتيب أسماء المؤلفين من العرب ما اشتهر به كل منهم ، مثل التوحيدي لأبي حيان ، والآلوسي لمحمود شكري الآلوسي

وغيرهما . فاذا كان اسم المؤلف لا ينطوى على نسبه أو شهرة معينة أبقياه على حاله ، مثل طه حسين ، ومصطفى جـواد . والتزما فى أسماء المؤلفين غير العرب ترتيبها تبعا لاسم الأسرة كما يفعـل الأوربيون ، فان اتفق اسم الأسرة كان الترتيب تبعا للأسماء الأولى . واذا كان للمؤلف الواحـد بضعة مؤلفات أو مقالات رتباها تحت اسم المؤلف حسب عناوينها .

ووضـعا ارقاما متسلسلة لكل ما ذكرا من مراجع عربية وغيرها ، فتجلى أنهما أوردا اسم ٥٣٥٧ مرجعا فى القسم العربى ، و ١٠٦٨ مرجعا فى القسم الأفرنجى .

واسـتخدما بعض الرموز لاختصـار بعض الكلمات التى يكثر دورانها فى الكتاب .

ونستطيع للتيسـير أن نقسم المـواد التى ذكرها الجامعان الى الأقسام التالية :

الكتب المطبوعة ، وكانا يذكران موضع طبعها وسنته ، وعدد صفحاتها ؛ ويوردان أحيانا كلمة قصيرة للتعريف بها أو للاشارة الى مرجع تكلم عنها أو نقدها .

الـكتب المخطوطة ، وكانا يذكران موضـعها والرقم المحفوظة تحته ؛ وكانا أحيانا يشيران الى مخطوطات لكتب مطبوعة أو يوردان كلمة قصيرة للتعريف بالمخطوط .

الـكتب المفقودة ، وكانا يوردان المرجـع أو المراجع التى ذكرتها ، وفى اى صفحة ذكرتها .

المقـالات ، وكانا يذكران اسم المجلة التى تحتوى عليها ، والعدد ، والسنة ، والتاريخ .

وأخيرا الفصول أو المواضع التى تعرضت فيها بعض الـكتب المطبوعة أو المخطوطة العـامة لبغداد أو رجل بغدادى أو أثر بغدادى ، وكانا يذكران اسم الكتاب وموضع طبعـه وسنته ، وموضع الفصل المقصود منه .

ثم أوردا عـدة فهارس : أولها للمؤلفين والمترجمـين والناشرين والمحققين والمقدمين . وثانيها للكتب والرسائل ، اى العناوين. وثالثها للجرائد . ورابعهـــا للدوريات . وخامس للمجلات . وسادس ـ وهو أهمها ـ للمواضيع .

وقد يستدرك المتخصص بل القارىء العام على الجامعين كتبـــا أو مقالات . وهما أول من يعترف بذلك اذ قالا (ص ٨) : « ولسنا ممن يدعى الكمال فى هذه الببليوجرافيا التى نضعها بين أيدى القراء . ونحن .. مازلنا نشعر بمواطن النقص فى هذه الببليوجرافيا . ولعلنا أعرف الناس بما يعتورها من فجوات وهنات . ونحن على يقين أن أشياء جمة مختلفة قد شذت عنا أو لم ينتهاليها علمنا . فالاحاطة التامة مستحيلة مهما بذل فى سبيلها من جهد . وعذرنا فى هـذا التقصير انها ببليوجرافيا مترامية الأطراف » . وانى لأرجو مخلصا أن يجمع الرجلان ما قد يصلا اليه أو ينبههما اليه الأصـــدقاء ، ثم يخرجاه فى رسائل مكملة للكتاب .

وقد يختلف معهما مختلف فى أهمية بعض الفهارس الأخيرة . فيرى أن فهرس المؤلفين .. لا ضرورة له لأن الكتاب نفسه مرتب على حروف الهجاء . ويرى أن فهارس الجرائد والدوريات والمجلات موضعها الحقيق بها المراجع ، لأنها ـ فى حقيقة الأمر ـ ليست بفهارس .

ويختلف معهما مختلف فى الايجاز الشديد الذى التزماه فى الحديث عن كل مادة فى كتابهما ، وفى بعض ما أشار اليه من كتب أو فصول ، وفى عدم تقصيهما طبعات المطبوع من الكتب .

ولـكن ذلك كله لا يجعـل المختلف يبسط اختلافه على الكتاب نفسه وأهميته ، فهو ـ كما يقول جامعاه ـ « سيكون ذا نتائج علمية خطيرة لدى الباحثين » . فقـد تجلى ـ مما كتبت ـ أهميـــة الكتب التى تورد مراجع موضوع ما ، وحاجتنـا الى التخطيط لأبحاثنـا ، لنصـل الى الدقة والأصـالة فيها . وليت بعض الدارسين عندنا يقومون بمثل تلك المحاولة للفســطاط ، والقاهرة ، والاسكندرية ، وقوص ، وغيرها من المدن المصرية ، والمدن العربية ، والأعلام العربية، وغيرها من الموضوعات التى كثر الجدل والتأليف حولها .

الدكتور حسين نصار

الفطريات

تأليف الدكتور عبد المحسن صالح

حالات تسمم غريبة تحدث فى بعض دول أوروبا فى الشتاء داخل القصور الفخمة ، ومجاعات فى أيرلندة نتيجة لتلف محصول البطاطس ، أما أسطول انجلترا ملكة البحار فأخذ يتهاوى قطعة وراء قطعة . بهذه الحوادث الطريفة مهد المؤلف للأضرار التى تحدثها الفطريات وكيف اكتشفها العلماء فى قديم الزمان .

والفطريات كائنات دقيقة يطلق عليها الناس اسم «العفن» ، وتظهر على بعض الفواكه والجبن والخبز والمربى اذا ما تركت مدة طويلة فى مكان رطب . وتتركب الفطريات من خيوط دقيقة تعرف بالخيوط الفطرية وهذه الخيوط تتجمع وتتداخل وتكون ما يعرف بالغزل الفطرى ، وقد تتجمع هذه الخيوط على هيئة أقراص تعرف بالمستعمرات الفطرية . وتتميز بعض الفطريات بألوان خاصة منها الأبيض والأسود والأحمر والبرتقالى والبنفسجى والأزرق والأصفر والأخضر .

وتحتوى الفطريات على حوالى مائة ألف نوع ، لكل نوع منها عدة سلالات مختلفة ، والأنواع تنتمى الى أجناس تضمها عائلات ذوات رتب تقع فى اربعة أقسام رئيسية . وقد تتفرع خيوط الفطر فى بعض الأحيان ، وقد تمتلك جذورا لتثبتها تعرف بأشباه الجذور ، ويتكون لها جراثيم ، تنتظم فى أشكال مختلفة عديدة على حواملها من الخيوط الفطرية . ويختلف سمك هذه الخيوط تبعا الى النوع الذى تنتمى اليه اذ يتراوح ما بين ١٠ــ٢٠ ميكرون ، كما أن بعض هذه الخيوط مقسم الى خلايا بواسطة حواجز والبعض الآخر غير مقسم . ويحيط بالخيط الفطرى جدار رقيق ، وبداخل هذا الجدار يوجد السيتوبلازم الحى وبه انوية ودهون وزيوت وبروتينات وسكريات معقدة وأملاح عضوية وغير عضوية وأصباغ وانزيمات ومركبات كيميائية أخرى . ويمكن تربية معظم الفطريات فى أطباق زجاجية معقمة فى وسط صناعى صلب مثل الجيلى يحتوى على العناصر الأساسية للحياة . وتختلف سرعة نمو الفطريات باختلاف نوعها وحسب الظروف المحيطة بها . وتستطيع الفطريات أن تتغذى على أبسط المواد وعلى أعقدها تركيبا ، فاذا وجدت ظروف الرطوبة المناسبة فانها يمكنها أن تحلل الخشب والملابس وقلف الأشجار والورق والفلين وروث البهائم والمربات والبذور الرطبة والبقول والفاكهة والخضر والتربة والشعر والصوف وحتى المادة الصمغية للأذن . وهى تفرز انزيمات خاصة تحلل هذه المواد الى مركبات أولية بسيطة يمكنها امتصاصها بسهولة ولذا تتميز الفطريات عن سائر المخلوقات بأنها تهضم غذاءها خارج جسمها ، كما أن لها القدرة على استيعاب كميات كبيرة من الغذاء دون أن تمل أو تصاب بالتخمة فتنمو وتتفرع دون توقف وتكون جراثيمها لتنطلق فى الهواء باحثة عن طعام جديد .

وتمتاز الفطريات بعدم احتوائها على الكلوروفيل ، وهى المادة الخضراء التى توجد فى النبات الراقى ويكون بمساعدتها غذاءه بنفسه ، ولذا فان الفطريات تعتمد فى غذائها اما على كائنات حية من انسان وحيوان ونبات وتعرف هذه بالفطريات المتطفلة ، أو تعتمد على مواد عضوية ميتة وتعرف بالفطريات المترممة . وقد تجمع بعض الفطريات بخاصتى التطفل والترمم حسب الظروف التى تقابلها . والفطريات المتطفلة متخصصة ، فالفطريات التى تصيب القمح لا تصيب العنب ، وتلك التى تصيب الذرة لا تستطيع أن تتطفل على الفول . كما أن للنبات الواحد طفيليات فطرية عدة ، بعضها خاص بالأوراق والآخر بالبراعم أو السيقان أو الحبوب أو الزهور أو الثمار . والفطريات التى تصيب الانسان بعضها يصيب الرأس فقط والآخر يصيب الجلد أو الأصابع أو الأذن أو الحلق . ومن أمثلة هذا التخصص الدقيق فطر مائى يعيش على خنفسة مائية ويصيب رجلها الخلفية اليمنى

والحَـياة

الناشر: الدار المصرية للتأليف والترجمة
قطع صغير الثمن ٤ قروش
عدد الصفحات ١٢٠ ص

فقط ولا يتعرض لبقية الأرجل . والفطريات المترممة ، ولو أنها تعيش على طعامنا وتفسده ، الا أنها تساعدنا على التخلص من بقايا الكائنات الميتة .

وتنتج الفطريات كميات هائلة من الجراثيم التى تنتشر فى الهواء الجوى وتهاجم ما تجده ملائما لها ، والجرثومة تنبت فى الظروف المناسبة وتعطى نباتا فطريا جديدا ، فلو تركنا رغيفا من الخبز فى مكان حار مظلم رطب فانه بعد عدة أيام يتكون عليه فطريات مختلفة أهمها وأكثرها انتشارا نوع مثل القطن المنفوش يعرف بعفن الخبز ، وجراثيم توجد بأعداد كبيرة داخل أكياس تعرف بالحوافظ الجرثومية . وفى فطر عيش الغراب ، الذى يشبه جسمها الثمرى شكل المظلة الصغيرة ، توجد ملايين من الجراثيم على جانبى صفائح خيشومية توجد فى السطح السفلى للمظلة . وبعض الفطريات يوجد بجسمها الثمرى أنابيب ضيقة بها طبقات عديدة من الجراثيم وقد يصل عدد هذه الأنابيب الى حوالى ألفين أنبوبة فى السنتيمتر المربع من الجسم الثمرى . والهواء هو العامل الأساسى فى انتشار جراثيم الفطريات وذلك لخفة وزنها فهى تنتقل الى مسافات شاسعة ، فمثلا مرض صدأ القمح تأتينا جراثيمه من أوروبا . وقد تكون الجراثيم حبيسة داخل أكياسها أو فى ثمراتها الفطرية ، ولذا تتخذ الفطريات وسائل مختلفة لتوزيع مثل هذه الجراثيم . ففى مجموعة من الفطريات تعرف بالكرات القاذفة ، وهى تشبه الكرة فى شكلها ، يوجد بها فتحة صغيرة تنطلق منها الجراثيم عند تساقط المطر عليها . وبعض الفطريات يعيش تحت الأرض ، ويوزع جراثيمه على هيئة درنات تمتاز برائحة خاصة تجذب الحشرات والحيوانات ، فتنقب فى الأرض وتأكلها وتخرجها مع فضلاتها لتوزع فى مكان آخر وبعض الفطريات يقذف بأكياسه الجرثومية ويوجهها بأحكام الى أوراق النباتات . وجراثيم الفطريات لا تعمر طويلا مثل جراثيم البكتريا ، كما أنها لا تتحمل الظروف القاسية من الحياة مثل الارتفاع أو الانخفاض الكبير فى درجة الحرارة ، وهى تتزاوج فى مثل هذه الظروف السيئة ، وتكون جنينا يحيط نفسه بجدار سميك لكى يقاوم هذه الظروف ، وعند عودة الظروف الملائمة يمزق الجنين هذا الجدار ويتحرر وينمو ويعطى جراثيم تنبت وتنتج مستعمرات فطرية مثل الوالدين . وبعض الفطريات لا يوجد فى دورتها تزاوج وتعرف بالفطريات الناقصة .

ويتأثر نمو الفطريات بدرجة الحرارة والغذاء والضوء والأكسجين والسموم والماء والرطوبة . فقد وجد أنها تنمو نموا عاديا بين ٢٠ — ٣٠ درجة مئوية ، ويتوقف النمو ما بين ٣٧ — ٤٥ درجة مئوية ، وتهلك تماما فوق درجة ٥٠ مئوية وتفضل معظم الفطريات الحياة فى الأماكن المظلمة ، وقد يحتاج بعضها الى موجات ضوئية خاصة لكى يكون جراثيمه . وتحتاج الفطريات للاكسيجين لكى تتنفس وتحرق الغذاء وتطلق الطاقات لتعيش بها ، ولو أن بعضها مثل الخميرة لا يحتاج للاكسيجين فى حياته . وهناك مركبات كيميائية تعرف بالمبيدات الفطرية من شأنها قتل وهلاك الفطريات ، الا أن المبيد الواحد قد يكون ذا تأثير فعال على فطر معين وغير فعال على فطر آخرى . وقد وجد أنه عند تكرار استعمال مبيد واحد لفطر يصيب محصولا معينا ، فان سلالات الفطر الجديدة تكتسب مناعة ضد هذا المبيد ولا تتأثر به بل تنمو وتزدهر فى وجوده . والماء يكون حوالى ٩٨ ٪ من وزن الفطريات ، وهو يلزم للخمائر والأنزيمات لكى تقوم بتحليل المواد الغذائية المعقدة الى مواد بسيطة أولية لامتصاصها . وهناك فطريات لا يمكنها أن تعيش الا فى الماء . وللرطوبة أهمية خاصة فى حياة الفطر ، مما ينتج عنه أضرار بالغة فى حياتنا العامة . فكل شىء تصله الرطوبة يظهر

عليه العفن . فالمأكولات المحفوظة والمحاصيل والأخشاب والورق والذخيرة والأسلحة والأجهزة الكهربية والميكروسكوبات تتلف من الجو الرطب وتصاب بالعفن . وحتى النباتات الخضراء عند ارتفاع درجة الرطوبة من الجو الذى تعيش فيه تصاب بما يعرف بالندوة ويعانى الفلاح من غزو الفطر لأرضه الكثير من الخسائر . وينشأ من تعفن الأخشاب أضرار بليغة مثل انهيار المنازل والمناجم وغرق السفن وتدمير قضبان القطارات. كذلك تعفن الورق أدى الى تلف كثير من الأوراق الهامة والمستندات .

والفطريات التى تهاجم نباتات المحاصيل الزراعية تسبب لها أمراضا عديدة ، فالقمح مثلا يصاب بأمراض الصدأ والتفحم والذبول ، وكلها تسبب خسائر فادحة فى المحصول . ويتطفل فطر صدأ القمح على عائل نباتى آخر يعرف بالبربرى ، ويظهر فى القمح على هيئة بثرات صغيرة على سطح الأوراق والسيقان . وللأوراق أنواع أخرى من الصدأ تعرف بالصدأ المخطط والمنقط . أما الحبوب فيصيبها مرض التفحم ، ويحول محتوياتها الى مسحوق أسود كالفحم ، والجذور يهاجمها فطر آخر يعرف بـ « فيوزاريم » ويسبب ذبولها فينهار النبات ، وقد يهاجم هذا الفطر منطقة السيقان الملامسة لسطح الأرض . أما سنابل القمح فتصاب بفطر « كلافيسيس بربوريا » الذى يحول بعض حباتها الى كتل سوداء تبرز الى الخارج بشكل واضح ، ولها خطر شديد على كل من يأكل خبزا مصنوعا من دقيق طحنت معه ، وقد يؤدى ذلك الى الوفاة ، ويصاب الذرة بأمراض التفحم وتعفن الكيزان والبياض الزغبى فى الأوراق والذبول وتعطن الساق والجذور .

وتصيب الفطريات الانسان ، وتسبب له أمراضا فى اعضاء جسمه المختلفة كشعر الرأس والجلد والعين والأذن واللسان والشفتين والمناطق التى يكثر فيها العرق والجهاز التنفسى والعصبى والغشاء المخاطى البلعوم والأنف والأحشاء والعظام وأصابع القدم . ويساعد على الاصابة بالفطريات وجود جرح أو ورم أو التهاب رئوى . والأمراض الفطرية فى الانسان لا تتخذ صورة وبائية فهى ليست سريعة الانتشار ، الا أنها تحدث تشويهات ملحوظة فى الجسم .

وبالرغم من الأضرار البليغة التى تسببها الفطريات للكائنات الحية ، الا أن بعضها يقوم بعمليات مفيدة ذات أهمية اقتصادية كبرى . ففطر الخميرة يقوم بعمليات تخميرية فى السكر ويحوله الى كحول ، وتستخدم عملية التخمير فى صناعات أخرى مثل صناعة الخمور والبيرة والخميرة المضغوطة التى تستعمل فى المخابز . ويساهم فطر أسبريجلاس فى انتاج حامض الليمون ، ويقوم فطر عفن الخبز بصناعة حامض اللبن من السكر الذى يستخدم فى أغراض طبية وصناعية . وحامض الجلوكونيك تنتجه بعض الفطريات بكميات كبيرة ، وكذلك حامض الأوكساليك والطرطريك والفيوماريك . كما أنه يمكن استخلاص انزيمات مختلفة بحالة نقية من الفطريات مثل انزيم الأميليز والأنفرتيز والبروتييز والبكتنيز ، وتستعمل هذه الانزيمات فى أغراض طبية وصناعية مختلفة . وتحتوى الفطريات على نسبة عالية من الدهون والبروتين صالحة لتغذية الانسان والحيوان . وبعض أنواع فطر عيش الغراب تصلح للأكل ، بل تعتبر من أفخر الأطعمة وأغلاها ثمنا ولو أن البعض الآخر منها سام جدا ، وهى تربى صناعيا على مواد متحللة مثل روث الحصان . وتستخدم بعض الفطريات فى صناعة الأنواع الفاخرة من الجبن مثل جبنة الركفورت والكاممبرت. كما أنه يستخلص من الارجوت مادة تعرف بالأرجوتين تستعمل فى تسهيل حالات الولادة العسرة وفى الاجهاض ولها أثر فعال فى وقف حالات النزيف الرحمى . وحامض الجيريليك المستخلص من فطر جبريلا الذى يصيب مزارع الأرز فى اليابان يستخدم كمنشط لنمو النباتات فيدفعها الى الازهار المبكر فينتقص من بقائها فى الأرض ، وكذلك يزيد من انتاجها . ومن الفطريات تمكن العلماء من استخلاص المضادات الحيوية مثل البنسلين والستربتومايسين والكلوروماي‍ستين، وهذه المضادات من شأنها القضاء على البكتيريا والفيروسات التى تصيب الانسان وتسبب له أمراضا حطيرة .

الدكتور محمد جمال الدين حسين

النسخ في القرآن الكريم

تأليف: الدكتور مصطفى زيد

الناشر : دار الفكر العربي

٨٩٠ ص ١٧×٢٤ (في مجلدين)

القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ختم الله به الكتب ، وانزله على خاتم الانبياء والرسل ليكون للناس جميعا دستور هداية للتي هي أقوم ، فلا يزيغ من تمسك به واعتصم بحبله ، وهو معجزة الرسول الخالدة التي افحمت ارباب الفصاحة والبلاغة فلم يستطيعوا ان يأتوا بشيء من مثله .

وقد نال هذا الكتاب الكريم عناية العلماء والدارسين ، وتنوعت هذه العناية واتخذت أشكالا مختلفة ، فتارة ترجع الى لفظه وادائه ، واخرى الى اسلوبه واعجازه ، وثالثة الى كتابته ورسمه ، ورابعة الى تفسيره وشرحه الى غير ذلك .

ولقد افرد العلماء كل ناحية من هذه النواحي بالبحث والتأليف ، ووضعوا من اجلها العلوم ودونوا الكتب ، وتباروا في هذا الميدان الواسع أشواطا بعيدة ، حتى زخرت المكتبة الاسلامية بتراث مجيد من آثار سلفنا الصالح ، وعلمائنا الاعلام ، وأصبح بين أيدينا الآن مصنفات متنوعة ، وموسوعات قيمة ، فيما نسميه علم القراءات ، وعلم التجويد ، وعلم النسخ العثماني ، وعلم التفسير ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، وعلم غريب القرآن ، وعلم اعجاز القرآن ، وعلم اعراب القرآن ، وما شاكل ذلك من العلوم الدينية والعربية ، مما يعتبر بحق اروع مظهر عرفه التاريخ لحراسة كتاب هو سيد الكتب ، وبات هذا المظهر معجزة جديدة مصدقة لقوله سبحانه : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

وقد لقي علم الناسخ والمنسوخ عناية خاصة ، واهتم به المفسرون والاصوليون اهتماما كبيرا ، وافرد له المؤلفون في علوم القرآن بابا في كتبهم ، كما عكف بعض الدارسين والعلماء على جمع ما تناقله الرواة من آثار في النسخ ليودعوها كتبا الفوها واطلقوا عليها اسما هو « الناسخ والمنسوخ » أو ما يدور في فلكه ، ومع كثرة المؤلفين في هذا الموضوع فان الكتب التي وصلت الينا قليلة ، ومرد هذا الاهتمام بموضوع النسخ الى انه يتعلق بالاحكام الشرعية وما نسخ منها وهو أمر يجب ان يعرفه كل باحث يتصدى لدراسة الشريعة ، واستخراج الاحكام الفقهية .

ولكن هذا الاهتمام لم يحل مشكلة النسخ ، وزادها تعقيدا وغموضا واضطرابا فقد اختلفت مناهج المؤلفين ، وتباينت نظرتهم حول مدلول معنى النسخ ، مما ادى الى كثرة دعاوى النسخ كثرة مذهلة من جهة ، والى اعتبار بعض الآيات منسوخة لدى بعض المؤلفين غير كذلك لدى البعض الآخر من جهة ثانية ، ومحاولة احد المؤلفين انكار النسخ في القرآن جملة ، وتأويل الآيات التي تدل على جوازه ووقوعه تأويلا لا يخلو من تعسف غالبا من جهة ثالثة ، هذا فضلا عن فقدان المنهج العلمي في دراسة هذه المشكلة قديما وحديثا .

وأخيرا تصدى لمعالجة هذا الموضوع الخطير الاستاذ الدكتور مصطفى زيد رئيس قسم العلوم الاسلامية بكلية دار العلوم ، فقدم فيه دراسة وافية شاملة ضخمة ظهرت في مجلدين ، بلغت صفحاتها نحو ألف صفحة ، وقامت هذه الدراسة على أسس علمية وخطة منهجية مركزة ، فجاءت بحق أول دراسة عالجت النسخ في القرآن الكريم ، وحلت هذه المشكلة المعقدة الهامة حلا علميا ، وجمعت بين الناحية التشريعية والتاريخية والنقدية .

ومما هو جدير بالذكر ان المؤلف الفاضل قد عاش مع موضوعه فترة طويلة ، فصلته به ترجع الى عام سنة ١٩٥٢ ، فقد كان مشغولا بتفسير سورة الانفال حينذاك ، وراعه ان يكون فيها ست من دعاوى النسخ على ست من آياتها التي لا تتجاوز خمسا وسبعين ، غير انه بعد ان ناقش هذه الدعاوى انتهى الى ان خمسا منها لا تقوم على أساس من المنقول أو المعقول ، وانه لا تعارض اطلاقا بين الآيات الناسخة والمنسوخة في زعم القائلين بالنسخ .

واحس المؤلف بعد هذا أنه امام مشكلة هائلة تحتاج الى حل ، وأن سبيل حلهـــا يحتاج الى مزيد من الاناة والهدوء والعمق ، فاتخذ « النسخ فى الشريعة الاسلامية » موضوعا لدرجة الدكتوراه ، ولم يقصد بهذا الحصول على هـــذه الدرجة العلمية بقدر ما تمنى ان يعالج المشكلة ويحلها ، ولكنه لم يكد يقطع فى كتابته شوطا حتى أيقن ان النسخ فى القرآن الكريم لا يمكن أن يدرس فى اقل من نحو الف صفحة ، وأن النسخ فى السنة يحتاج الى مثل هذا ، فقصر دراسته على النسخ فى القرآن الكريم راجيا أن يدرس النسخ فى السنة فى كتاب تال ان شاء الله .

واعترف بأن هذا السفر الضخم لا تفى مقالة واحدة لدراسته والتعريف به ، وارجو ان أتمكن فى هـــذه الكلمة الموجزة من اعطاء القارىء فكرة عامة سريعة عن أهم جوانب هذا الكتاب ، مرجئا دراسته دراسة تفصيلية مستوعبة الى فرصة قريبة ان شاء الله .

يقوم هذا الكتاب على خطة منهجية ترتكز على دعائم ثلاث : الناحية التشريعية ، والناحية التاريخية ، والناحية النقدية ، وقد اقتضى الوفاء بهذه النواحى الثلاث أن يقسم الكتاب الى أربعة أبواب وتمهيد وخاتمة ..

أما التمهيد فقد استهله بالاشارة الى ما تفعله الدول من الغاء قوانينها اذا لم تحقق الغـــاية التى وضعت من اجلها ، وتقوم بوضع قوانين جـــديدة تحل محل القوانين الملغاة ، واحيانا لا تلغى القوانين جملة وانما تلغى بعض المواد لانها لم تعد تحقق المصلحة التى نيطت بها ، أو توضع مواد جديدة تحقق المصلحة ، وذكر بعد هذا أننا اذا تقبلنا هذا النسخ بين القوانين الوضعية المختلفة ، وبين مواد كل منها ، فيجب أن نتقبله ولا نستنكره عندما ينقل الينا أنه قد وقع بين الشرائع السماوية ، وفيها ، ثم فرق بين النسخ فى القوانين الوضعية والنسخ فى الشرائع السماوية ، وناقش الرافضـــة فيما ذهبوا اليه من آراء حول النسخ ، وربطهم بينه وبين البداء ، وأبطل بالحجج الدامغة آراء تلك الفرقة الزائغة ، وما اثاروه من شبهات ومفتريات ، واستطرد بعد هذا الى دراسة موقف اليهود من النسخ فأثبت أن فرق اليهود الثـــلاث وان تباينت آراؤها بعض التباين حول فكرة النسخ ــ متفقون على شىء واحـــد : هو ان الشريعة الاسلامية لم تنسخ الشريعة اليهودية ولا ريب أن هذا تعصب ومكابرة ، وهو امر ليس غريبا على اليهود قديما وحـــديثا ، وبعد اليهود ناقش النصارى فى زعمهم بأن النسخ ليس بجائز عقلا ولا واقع سمعا ، وقد أثبت بالادلة العلمية وايراد وقائع للنسخ من التوراة والانجيل فساد هذا الزعم ، وختم التمهيد بأن النسخ جائز عقلا وسمعا عند المسلمين ، وان القرآن الكريم قد جاء للنـــاس جميعا ، وان على كل انسان ان يؤمن به ، وانه قد نسخ الشرائع السالفة ، وان بعض احكام القرآن قد نسخت احكاما وردت فى القرآن ذاته ، وان علماء المســـلمين قد اجمعوا على ذلك ، ولم يشـــذ الا أبو مسلم الاصفهانى الذى انكر النسخ فى القرآن ، ولم يشـــأ أن يتعرض بالتفصيل لمذهب أبى مسلم فى هـــذا التمهيد ، وأشار بأنه سيبسط القول فيه عند الحديث عن حكم النسخ .

وفى البـــاب الأول تحدث عن النسخ عند الاصوليين فدرسه فى أربعة فصول ، اقتصر الحديث فى الفصل الأول على تعريف النسخ لغة وشرعا ، مع الاهتمام بتفسير ما عرى هذا التعريف من تطور ، وما لحقه من تغير ، وقد وازن بين المدارس الأصـــولية فى تعريفها للنسخ ، ووضح الظروف البيئية والفكرية التى لعبت دورا هاما فى تعريف النسخ لدى بعض الأصوليين ، وأبرز أثر الاختلاف بين الاصوليين فى هذا التعريف فى كثرة قضـــايا النسخ وقلتها منذ عصر النبوة حتى الآن ، وآثر تعريف المدرســـة القائلة بالرفع وهو : « رفع الحـــكم الشرعى بدليل شرعى متـــأخر » وأعطى الأدلة التى جعلته يؤثر هذا التعريف وذكر أن على أساسه سيدرس المشكلة ، وختم هـــذا الفصل بمقارنة جامعة دقيقة بين آراء علماء الاصـــول وموقفهم من تعريف النسخ .

أما الفصل الثـــانى فقد درس فيـــه النسخ وبعض أساليب البيان التى قد تختلط به ، كالتخصيص والتقييد والتفسير ، ففرق بينهـــا وبين النسخ ، وأتى بالامثلة الكثيرة والشواهد المختلفة ليوضح ما بين النسخ وهـــذه الأساليب من وجوه التباين ، وخلص من هذا الى أن السر فى كثرة دعاوى النسخ مصدرها الخلط بين حقيقة النسخ وهذه الأساليب ، وأن معظم ما اعتبر منسوخا لا يعدو ما فيه أن يكون تخصيصا ، أو تقييدا ، أو بيانا لمبهم ، أو تفصيلا لمجمل .

وعقد الفصل الثالث للكلام من شروط النسخ ما اتفق عليه منها ، وما اختلف فيه ، وقد درس هذه الشروط على ضوء وقائع النسخ التى صـــحت ، وحسم القول فى كل الشروط المختلف فيهـــا مع استفاضة فى عرض الآراء ومناقشتها ، مؤكدا اولا وقبل كل شىء ان عصر الرسالة

هو الزمن الذى يسوغ فيه نسخ النصوص دون ما بعده ، وبين لم يجب أن نرفض كل دعوى نسخ لم تؤثر عن هذا العصر ، وانما جدت بعد مضيه ؛ اذ لا ينبغى ان ينسخ نص تشريعى تركه الرسول صلى الله عليه وسلم محكما ، ومؤكدا كذلك أن الله سبحانه وتعالى هو صاحب الحق فى النسخ ، وصدق الله العظيم « ما ننسخ من آية او ننسها نات بخير منهـا او مثلها » « يمحو الله ما يشاء ويثبت » « واذا بدلنا آية مكان آية ـ والله أعلم بما ينزل ـ قالوا انما أنت مفتر ، بل اكثرهم لا يعلمون » .

وتحدث بعد هذا عن الطرق المعرفة للناسخ والمنسوخ ؛ لانها مكملة لشروطه ، فعرض لآراء بعض الأصوليين والفقهاء ، وانتهى بعد نقد ما عرض من آراء الى بيان الطرق الصحيحة لمعرفة الناسخ والمنسوخ ، وأخذ على الأصوليين ما ذهبوا اليه من امكان وقوع التعارض بين نصين شرعيين دون دليل على النسخ ودون مرجح لاحدهما على الآخر ، لان هذا مجرد فرض لم يسنده أثر ، ولا يصح أن يقول به فقيه أو أصولى ؛ لأن الله تبارك وتعالى كما يقول الامام ابن حزم : ما « تركنا فى عمياء وضلالة لا ندرى معها ابدا هل هذا الحكم منسوخ ، أو غير منسوخ ! هذا أمر قد امنا وقوعه ابدا ، اذ لو كان ذلك لكان الدين قد بطل اكثره .... حاشا لله من هذا » .

وفى الفصل الرابع وهو الاخير من الباب الأول ، تحدث من حكم النسخ ودليله ، فذكر أن المنطق السليم يقرر جواز النسخ عقلا ، لانه لا يترتب على وقوعه محال ، وان الواقع التاريخى يؤكد وقوع النسخ سمعا ؛ فقد ثبت نسخ حكم لحكم فى الشريعة الواحدة ، ونسخ شريعة للشريعة السابقة لها ، ثم افاض بعد ذلك فى الحديث عن الآيات التى تحدثت عن النسخ فى القرآن الكريم ففسرها ، وعرض لكل جزئية فيها بالتحليل والتفصيل والموازنة وهدت هذه الدراسة الدقيقة لآيات النسخ فى القرآن وبعض الاحاديث النبوية الى الحكم بجواز النسخ شرعا ، وبينت ان المسلمين قد أجمعوا على هذا ، أما أبو مسلم الذى ذهب الى خلاف ما أجمع عليه المسلمون ، وزعم بأنه ليس فى القرآن ناسخ ولا منسوخ ، فقد ناقشه المؤلف مناقشة هادئة منطقية البتت ان الادلة التى قام عليها مذهب ابى مسلم واهية لا تصمد أمام النقد ، وأن أبا مسلم قد ذهب فى تأويل الآيات القرآنية الصريحة فى جواز النسخ ووقوعه مذهبا تأباه طبيعة اللغة ، ومعانى الآيات وسياقها .

وبعد ان ابطل مذهب أبى مسلم ، تحدث عن حكمة النسخ ، فأشار الى ان الله تبارك وتعالى رحيم بعباده ، يفرض عليهم ما يحقق سعادتهم فى الدنيا والآخرة فاذا نسخ حكما كان قد فرضه ، أتى بحكم آخر يحقق أيضا الخير والفلاح ، ورحم الله الامام الشافعى حين قال : ان الله خلق الخلق لما سبق فى علمه ، مما أراد بخلقهم وبهم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .

وأنزل عليهم الكتاب تبيانا لكل شىء ، وهدى ورحمة ، وفرض فيه فرائض اثبتها ، واخرى نسخها ؛ رحمة لخلقه : بالتخفيف عنهم ، وبالتوسعة عليهم ، زيادة فيما ابتدأهم به من نعمه ، واثابهم على الانتهاء الى ما اثبت عليهم : جنته ، والنجاة من عذابه . فعمتهم رحمته فيما اثبت ونسخ . فله الحمد على نعمه » .

وتكلم فى ختام هذا الفصل عن أنواع النسخ فى القرآن فبين أنهما نوعان لا اكثر : ما نسخ حكمه وبقى نظمه ، وما نسخ حكمه ونظمه معا ، أما ما يزعمه البعض من ان هناك نوعا ثالثا هو منسوخ التلاوة باقى الحكم ، فهو مجرد فرض لم يتحقق فى واقعة واحدة ، ولهذا رفضه لانه غير معقول ولا مقبول .

أما الباب الثانى فقد تناول فيه بحث المشكلة من الناحية التاريخية ، فدرسها فى فصلين ، تحدث فى الفصل الأول عن التأليف فى المشكلة فأشار الى موقف الصحابة من القرآن ودراسته ، ثم تطور الدراسات القرآنية وتعددها ، واعتبار ناسخ القرآن ومنسوخه شرطا فيمن يفسر القرآن ، أو فيمن ينصب نفسه لمنصب الافتاء وذكر أنه عندما بدأ التصنيف فى العلوم ، أفرد كثير من العلماء النسخ بالتأليف ، وحفظت لنا كتب التراجم على تنوعها ووفرتها ، ومعاجم البلدان أسماء كثير من المؤلفين فى ناسخ القرآن ومنسوخه . ثم ترجم لبعض المؤلفين ، مبينا ما قيل فى كل منهم تعديلا وتجريحا وملتزما الترتيب الزمنى فى التعريف بهم .

وفى الفصل الثانى تحدث عن الكتب التى عثر عليها وهو قليل من كثير فقدته المكتبة الاسلامية ، فعرف بها وشرح مناهجها ثم نقدها وأبرز قيمتها العلمية ، وما اضافه كل مؤلف من جديد بالنسبة الى ما سبقه مع تحقيق نسبة كل كتاب الى مؤلفه ، وأهاب فى نهاية هذا الفصل بطبع بعض هذه المؤلفات التى ما زالت مخطوطة طبعا علميا محققا للافادة من هذا التراث القيم الذى يعتز به الفكر العربى والثقافة الاسلامية .

اما الباب الثالث وهو اهم أبواب الكتاب واطولها ، فهو يتناول دعاوى النسخ التى لم تصح فى القرآن الكريم ، لقد كثرت اقوال العلماء ، وتضاربت فى كثير من الاحيان ، واختلفت مناهجهم ، فتضخمت نتيجة لهذا دعاوى النسخ تضخما غريبا مزعجا ، وقد عالج المؤلف بمقدرة ومهارة كل هذه الدعاوى علاجا ناجعا ، وناقش كل رأى مناقشة تتسم بالاحاطة والعمق وتحديد المفاهيم ، واقتضى منه هذا أن يقسم الباب الى سبعة فصول ، أحصى فى الفصل الأول عدد القضايا التى عالجها كل مؤلف ، ثم وضع جدولين ، اولهما لتسجيل عدد قضايا النسخ فى كل سورة فى كل كتاب على حدة وثانيهما لتسجيل قضايا النسخ فى كل سورة ايضا ولكن بعد جمع كل ما قيل فى نسخ بعض آياتها ، وترتيبه حسب موقعه فيها ثم حصره بدقة .

لقد أحصى فى هذا الفصل كل الدعاوى ما صح منها وما لم يصح ، ثم صنف الآيات بعد ذلك تصنيفا موضوعيا ، وعالج كل مجموعة فى فصل مستقل على حسب ترتيبها فى المصحف ، ولذلك درس فى الفصل الثانى دعاوى النسخ فى الآيات الاخبارية ، وهى تلك الآيات التى لا تشرع أحكاما مثل قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » وقد ناقش فى هذا الفصل خمسا وسبعين دعوى ، وانتهت به المناقشة الى اثبات بطلان هذه الدعاوى ؛ لان الاخبار لا تنسخ ، فالله تبارك وتعالى لا يحكى خبرا ثم ينقضه تعالى الله من ذلك علوا كبيرا .

وعرض فى الفصل الثالث لدعاوى النسخ فى آيات الوعيد والتهديد مثل آية « قل يا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار انه لا يفلح الظالمون » وقد ناقش فى هذا الفصل ثمانى وعشرين دعوى ، فأثبت فسادها ؛ لان آيات الوعيد والتهديد لا يمكن أن تنسخ ؛ لان ما تضمنته لابد أن يقع ، فهى تشترك مع الأخبار فى حتمية الوقوع وان خالفتها ــ غالبا ــ فى زمانه ومن ثم تشترك معها فى عدم قبولها للنسخ بحال ..

اما الفصل الرابع فقد تحدث فيه عن دعاوى النسخ باية السيف ، فهذه الآية ــ فى اصح الاقوال ــ هى قوله تعالى فى سورة التوبة : « فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم » ، لقد ادعى بان هذه الآية نسخت آيات الصبر والأمر بالمعروف ، ودفع السيئة بالتى هى احسن ، كما نسخت آيات الامر بالاعراض عن المشركين وغير ذلك من الآيات التى ذهب بعض المفسرين الى القول بانها نسخت بهذه الاية ، وقد فسر اولا آية السيف هذه ، واوضح المراد بها ، ثم ناقش دعاوى النسخ بهذه الآية ، وهى ثلاث وستون دعوى ، وأبان بأنه لا تعارض بين آية السيف وبين الآيات المدعى نسخها بها ، ومن ثم فان هذه الدعاوى لا دليل عليها ، ولا يصح الأخذ بها .

وفى الفصل الخامس عرض لمجموعة من الآيات ادعى النسخ بينهما وليست كذلك ، لان هذه الآيات قد تكون العلاقة فيما بينها التخصيص أو التقييد ، أو التفسير ، او التفصيل ، وكل من هذه لا يؤدى الى النسخ ؛ اذ أنه ــ كما سبق ــ رفع الحكم الشرعي بدليل شرعى متأخر وليس هنا رفع حكم ، ولكن تخصيص او تقييد .. الخ وعدة هذه الآيات ثمان واربعون .

أما الفصل السادس فقد درس فيه آيات ليس بينها وبين نواسخها تعارض حقيقى مثل قوله تعالى : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم » قالوا : هى منسوخة بقوله جل ثناؤه « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره وان الذين اوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون » ، وقد ناقش دعاوى النسخ المزعومة هنا ، والتى تربى على الخمسين ، وأثبت بجلاء أنها دعاوى ساقطة لا يسندها منطق ، ولا يقويها أثر يعتد به .

وفى الفصل الأخير من هذا الباب الهام يعرض لآيات تتميز باجماع المؤلفين على أنها منسوخة ، وقد بين أن هذه الآيات مع أنها اشتهرت بأنها منسوخة ، ومع اجماع المؤلفين على ذلك ، فانها ليست منسوخة ؛ لان شروط النسخ لا تتوافر فيها ، ولا تعارض بينها وبين غيرها من الآيات المدعى بأنها ناسخة لها وتبلغ دعاوى النسخ فى هذا الفصل ست فقط .

أما الباب الرابع ــ وهو ذو فصل وحيد ــ فقد عالج فيه وقائع النسخ التى توافرت فيها شروطه ، وقام الدليل على النسخ فيها ، عالجها بترتيب فقهى ، لا بترتيب وقوعها فى المصحف وهذه الوقائع تشمل نوعين :

النوع الأول وقائع نسخت فيها أحكام ثبتت بالسنة ، وكان الناسخ لها آيات من القرآن الكريم مثل تحويل القبلة ، وتحريم الكلام فى الصلاة بعد أن كان مباحا بالسنة العملية .

النوع الثانى وقائع نسخت فيها أحكام ثبتت بالقرآن وكان الناسخ لها آيات من القرآن كذلك مثل تحريم

الخمر ، وبعض أحكام القتال . لقد درس في هذا الباب وقائع النسخ الصحيحة دراسة مفصلة ، تقوم على توضيح شروط النسخ وأدلته وطريق معرفته مع عرض موجز لما ترتب عليه من احكام جديدة حلت محل أحكام كانت قبلها ، فحسمت هذه الدراسة المشكلة ، وميزت وقائع النسخ الصحيحة من غيرها ورفضت تلك الدعاوى المسرفة التى لا تنهض على اساس من المنقول ، او المعقول .

وفى خاتمة هـــذا البحث ـ الذى ارجو ان اكون قد وفقت فى عرضـــه والتعريف به ـ ســجل المؤلف بعض النتائج التى انتهى اليها ، وبعض المقترحات التى أسفر البحث عنها .

وبعد فماذا يحمل هذا العمل العلمى الكبير من خصائص ، او بعبارة أخرى ما هى القيمة العلمية لهذا الكتاب ؟ .

لقد أشرت فى ثنـــايا عرضى لهذا الكتاب الى بعض خصائصه ، واود الآن أن أفصل القول بعض التفصيل فى بيان قيمته ، ومكانته فى المكتبة الاسلامية .

ان من يقرأ هـــذا الكتاب قراءة واعية متأنية يلاحظ ما يلى :

اولا : اعتماده على المراجع الأصيلة والنادرة ، فمؤلفه لم يدخر وسعا فى البحث والتنقيب ـ رغم ظروفه الصحية القاسية ـ حتى تجمعت لديه المادة الاصلية المستقاة من المراجع المعتد بها ، ولو كانت هـــذه المراجع فى مكتبات اجنبية ، فقد سعى لتصويرها ، والحصول على نسخ منهـــا .

ثانيا : الأمانة العلميـــة الدقيقة ، وتخريج النصوص وتوثيقها ، فكل عبـــارة ينقلها من أى مصدر يرجعها الى مصدرها سواء قصرت هذه العبارة أو طالت .

ثالثا : المناقشـــات العلمية المركزة ، والقارىء يحس من خلال هـــذه المناقشات أن المؤلف يسيطر على موضوعه سيطرة تامة ، ويلم به من جميع أطرافه ، ويعرف دقائقه معرفة وافية ، وانه يطلب من وراء هذه المناقشات الحقيقة وحدها دون أن يهتم بالأسماء ؛ لانه لا يعرف الحق بالرجال ولكن يعرف الرجال بالحق .

رابعـا : استخلاص النتائج من مقدمات تعرض عرضا شافيا ، فهو يقدم الأمثلة المختلفة ويفسرها تفسيرا علميا ثم يستنتج منهـــا بعد ذلك النتـــائج التى تهدى دراسة المقدمات اليها وهـــذا دليل على أن المؤلف عالج موضوعه مستقل الرأى حر التفكير ، لم يتأثر باتجاه معين أو برأى خاص وهـــذا سمة على الأصالة فى البحث ، والابتكار فى التأليف والدرس ، فحيث لا يكون الباحث مغلول التفكير برأى سابق ، وحيث يكون الحق رائده والأناة والاخلاص عدته ، فان النتائج العلمية التى يصل اليها تحمل طابع الاستقلال والجدة .

خامسا : أن هـــذا الكتاب قد درس الناحية التاريخية والتشريعية للمشـــكلة دراسة جديدة منهجا وتناولا ، فلم يسبق أن درس كتاب هـــذه المشكلة بهذه الصورة الفريدة الكاملة ، فالكتب القديمة كانت تتحدث عن دعاوى النسخ بلا منهج علمى وبلا تحديد دقيق لحقيقة النسخ ، أما الكتب الحـــديثة ـ وليست سوى رسالتين موجزتين قدمتا فى جامعة الأزهر ـ فقد عريت عن المنهجية والأصالة ودراسة الناحية التاريخيـــة فى مراحلهـــا المتباينة ، ورددت آراء السابقين بلا نقد ، أو تمحيص ، ولكن هذا الكتاب ـ دون اسراف . أو مبالغة فى القول ـ قد درس المشكلة بشطريها التاريخى والتشريعى دراسة موضـــوعية تمتاز بالمنهجية الشاملة ، والنظرات النقـــدية الفاحصة ، فهو لهذا يعد اول كتاب اشتمل على كل ما يتعلق بالنسخ بوجـــه عام وبالنسخ فى القرآن بوجه خاص .

سادسا : ان هذا الكتاب قد جمع بين الفكرة العلمية والصياغة الادبيـــة ، فمؤلفه عالم وأديب ، استطاع أن يخلص مثل هذه المباحث من جفاف الأسلوب وغموضه ، وركة العبارة وسوقيتها وهى ظاهرة عامة تبدو فى مؤلفاته كلها لا فى هذا الكتاب فحسب ، ومن يقرأ له « تفسير سورة الأنفال » أو « المصلحة فى التشريع الاسلامى » أو « منهج الاسلام فى تربيـــة الإرادة » يلاحظ شيوع هذه الظاهرة وهذا يؤكد كذلك ان « الرؤية العلمية » لديه واضـــحة لا يشوبها ضباب من أى لون ، ووضوح الرؤية العلمية شرط أســـاسى لنقل الفـــكرة فى صورة خلابة واضحة غير مستكرهة ولا معقدة .

وبعد ، فهـــذا بعض ما عن لى بعد أن سعدت بصحبة هذا الكتاب فترة غير قصيرة قرأته فيها مرتين ، ازددت بعـــدهما يقينا بأنه لا غرو فى أن ينال مؤلفه عليه درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الاولى ، وأن تجمع لجنة المناقشة على أن هذا الكتاب مرجع وحيد أصيل فى بابه ، وانه ملأ فراغا فى المكتبة الاسلامية كانت تعانى منه منذ أمد بعيد .

ولا احب أن أضع القلم قبل أن أشير الى ما قام به المؤلف من وضع الفهـــارس العلميـــة المتنوعة فهى تمتـــاز بالدقة وحسن التبويب والاستيعاب وان كنت أود أن يكون فهرس الأعلام فى الطبعة الثانية باذن الله عاما غير قاصر على من ترجم لهم ـ رغم كثرة هؤلاء ـ كما آمل أن نرى قريبا ان شاء الله كتاب النسخ فى الســـنة النبوية الشريفة ، ليكون مع النسخ فى القرآن دراسة متكاملة شاملة أصيلة عن النسخ فى الشريعة الاسلامية كلها ..

محمد الدسوقى

بيرجنت

تأليف
هنريك إبسن

ترجمة وتقديم : الدكتور علي الراعي
مراجعة : الدكتور محمد مندور

الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة
٣٠٧ صفحات ١٤×٢٠ الثمن ٥

تعرضت مسرحية بيرجنت لطراز فريد من الشخصيات .. تلك هى شخصيــة بطلهــا الرئيسية .. بيرجنت الكذاب الخيالى الى ابعد حدود الخيال . ولكن القارىء سرعان مايتعاطف مع هذه الشخصية ، ويمضى معها فى اكاذيبهـا واوهامها مستغرقا استغراقا لا ينتهى الا بعـد أن تصل المسرحية الى نهايتها بلحظات .

وربما كان السبب فى ذلك التعاطف الذى تحظى به شخصية بيرجنت أن القــارىء يجد فيها نفسه بمعنى ما . حتى ولو اختلف وجه الشبه فى الدرجة . ففى شخصية بيرجنت تتمثل مأساة الانســان وانقسامه على نفسه بيــد واقعه بكل وطأته وثقله ، وبيد خيــالاته بكل ما تتصف به هذه الخيالات من عذوبة وبطولة وتألق ومثالية .

فبينما نجد بيرجنت فى واقعه مجرد شاب فقير جبان يحتقره المحيطون به ، ولا يكفون عن السخرية منه والتندر به .. نجده فى خيــالاته يلعب بالذهب .. واذا بالشجــاعة هى ابرز صفاته ، ثم تتطور المسرحية لكى نجد بيرجنت قد اصبح موضع احترام من الجميع فى كل ارض تطؤها قدماه .

وبين هذين القطبين من الواقع والخيال .. نجد شخصيــة البطل تتطــور وتمر بمراحل عديدة .. فبينما نجــد أن واقع بيرجنت يتقاسم افكاره وحياته فى بداية المسرحية .. نجد ان شخصيته تتطور بحيث لا تواجه واقعها الحقيقى الا فى لحظات خاطفــة يشعر فيهـــا بيرجنت نفسه بالغربة ازاء هــذا الواقع من جهة ، ومن جهة اخرى يجد القارىء نفسه وقد نسى او كاد ان ينسى احــداث هــذا الواقع وجزئياته .

ومن خــلال تطور الشخصية بين هذين القطبين تمضى المسرحية لكى نلمس من خــلال احداثها تأرجح بيرجنت بين قطبى الخير والشر . فهو فى بداية المسرحية مجرد غلام مشــاكس خيالى جعجاع يكاد يلحق الأذى بأمه « آس » فى كل سلوك له تقريبا ، ثم تتطور المسرحية لكى نجد البطل وقد بلغ جانب الخير فيه ذروته فى موقف موت امه ، ثم الى انسان نراه قد بلغت به الكراهية والحقد الى حد التشفى فى مصائب الناس والشعور باللذة فى الامتناع عن مساعدتهم وفى سماع هذه المصائب ، ويتجلى ذلك فى موقف السفينة وهى تغرق ببحارتها ، كما يتضح أيضا فى حديثه عندما طلب منه قبطان الســفينة ان ينفح البحــارة شيئا يحتفلون به مع زوجاتهم واولادهم . فاذا بالبطل يصــيح : « انفق على أسراب من أولاد الفير ، ازرع الضحــكة فى ارواحهم ، وادخل البهجة الى بيوتهم واثقا انهم دوما يلقون رعاية شخص ما . وانا لا اجد قط من يرعانى . نور يرحب بهم ؟! اذن ســاطفىء

حالا هذا النور !! سرعان ما سأجد الطريقة !! سأسكرهم جميعا ، الملاعين !! سأحرص على ان يفقدوا الوعى جميعا ، سيعودون الى زوجاتهم وهم فى سكر بين ، ستفزع الأسر حتى تفقد العقول وتجرى الزوجات وهن يبكين .. هكذا أدخل السعادة عليهم . »

ففى هذا الحديث الذى يجاهر به بيرچنت تتجلى مأساته التى ولدت حقده على الآخرين ، فبعد أن صال وجال البلدان وعبر البحار .. وجد نفسه صفر اليدين لا زوجة ولا أولاد يتهللون لعودته .. فاذا بهذا الحرمان ينقلب حقدا وكراهية بل ورغبة فى الانتقام من كل من يتمتع بهذه النعم .

غير اننا لو عدنا الى بداية المسرحية نجد بيرچنت يتطلع الى حياة الروح والطهر ، ويتمثل ذلك فى حبه لسولفيج .. وفى سبيلها نجده فى لحظات يحارب نزواته التى دفعته يوما الى خطف انجريد (ابنة الأمير) فى ليلة عرسها .. حتى كانت تلك الحادثة هى الفيصل بينه وبين وطنه وأمه بل ونفسه .. وان كانت هذه الحادثة فى رأينا اعقد من مجرد صورة من صور انقياد بيرچنت لنزواته .. فربما كانت احدى الصور التى تعبر عن كراهية بيرچنت وحقده على الطبقة الفنية الأرستقراطية فى عصره ، ورغبته فى الانتقام لنفسه ولفقره .

نقول ان هذا الحادث كان هو الفيصل بين بيرچنت وبين نفسه.. ونقصد بينه وبين واقعه الحقيقى . فمنذ هذا الحادث نجد البطل يستغرق فى مغامراته مع الجن تارة ومع العابثات تارة أخرى . ثم نجده ينزلق فى حب ابنة ملك الجان التى تعلن لبيرچنت ان شعار الجن هو « اجعل فى نفسك لنفسك الكفاية » بينما شعار الانسان هو « كن أمينا على نفسك » ..وهكذا نعثر على طبيعة الانسان بكل ميلها الى الشر تارة وحب الذات تارة والى الخير والتمسك بالفضيلة والشرف تارة أخرى .

وفى هذين الشعارين أيضا تتلخص شخصية بيرچنت التى يتصارع فيها هذان الشعاران طوال المسرحية . فبينما نجده يتقبل الشعار الأول فى بداية لقائه مع «الترول» ـ وهى قبيلة من الجان ـ اذا به يثور على تقاليد القبيلة وما يتطلبه انتماؤه اليها .. وان كانت ثورة ظاهرية . فنحن نجد البطل عندما لاحت له فرصة العيش السعيد مع سولفيج فى لقائه لها على غير موعد (فى الفصل الثالث) اذا بنا نجده يتخلى عن هذه الفرصة ويهرب بعيدا وهو يتذرع بحجج وذرائع هو نفسه غير مقتنع بها ويترك سولفيج مدعيا انه ليس أهلا لها .

ورغم ذلك فمن الصعب علينا ان نقرر فى وضوح ان بيرچنت حينما ترك سولفيج كان ذلك دليلا على تغلب الشعار الأول ورغبة البطل فى ان يترك لنفسه العنان كى ينساق الى أقصى درجات المغامرة . بل ان الأحرى بنا أن نجد فى هذا الموقف اكبر دليل على تردد بيرچنت وبحثه الفكرى الطويل عن وسيلة يحقق بها ذاته . ومن هنا نجد اختلاط الشعارين فى كل موقف من مواقف المسرحية لخدمة غرض واحد هو تصوير مدى حيرة بيرچنت وسعيه الدائب من أجل تحقيق ذاته .

ان البطل فى رواية ابسن يمثل الانسان فى قمة تحرره من الواقع ، ولكن المؤلف لا يصور لنا هذا التحرر المبالغ فيه الا ويقرنه بالمصائب التى يجلبها هذا التحرر على صاحبه .



وهنا يتضح لنا ابسن كفنان لا يريد للانسان ان يجعل غايته الكبرى هى مجرد التحرر من واقعه وانما هو يريده انسانا متحررا كوسيلة من اجل تحقيق ارادته واصالته ككائن اعلى متميز .

ان ابسن يصور لنا بيرجنت كرمز للانسان الذى يشعر دائما أبدا بقيمته بالقياس الى سائر المخلوقات الأخرى . ومن ثم فهو يظل دائما أبدا أيضا يسعى لكى يخرج هذه القيمة الى حيز الوجود ، ويؤكدها لنفسه أولا ثم لغيره من بنى جنسه بل وللكائنات الأخرى جميعا .

فهاهو بيرجنت يرفض بشدة ان ينساق الى اوامر ملك الجان لكى يتنازل عن بعض صفاته الانسانية المميزة له ، وان يتسم بصفات اهل الجان .. رافضا مع ذلك كل المغريات التى يفرضها عليه الملك .

الملك : اصغ الى أيها الأمير بيير، وحاول أن تكون حكيما ! ان مواهبك تؤهلك لأن تكون جنيا ممتازا .. اليس له طابع الجن وهيأته ؟ وانت تحب ان تكون جنيا كذلك ؟

بيير : يعلم الله اننى اريد . ان كسب عروس جميلة ، ومملكة نموذجية الى جوارها . مسألة تستأهل بعض التنازل . ولكن لكل شىء حدود . قد قبلت الذيل ، هذا صحيح ، ولكن ما الذى يمنعنى ان اخلعه ؟ وقد خلعت سراويلى وكانت قديمة ممزقة، ولكن ماذا يردنى عن ارتدائها من جديد ؟ اما حياة الجن هذه ، حياتكم ، فلتخطفنى الشياطين اذا لم أستطع أن انضوها عن نفسى . اذا شئتم اقسمت أن البقرة فتاة بكر ، فانى أستطيع دائما أن أتحلل من القسم ، ولكن ان افقد حريتى ، واعلم انى لن استردها من جديد ، وانى حين أموت لن ادفن كما يدفن خيار الناس ، وانى سأقضى بقية أيامى مع الجن فى الجبال . وكما تقول الاقاصيص لا اعود الى بيتى قط . ـ وهذه مسألة تلحون عليها كل الالحاح ـ فأمور كلها غير مقبولة لدى . »

وهكذا يظهر بوضوح فى النص السابق مدى شعور بيرجنت بقيمته كانسان وان جلبت عليه انسانيته كل هذا القلق وتلك الحيرة .

اما من ناحية القالب الفنى للمسرحية .. فنحن لا نستطيع ان نقف على جميع المعانى والدلالات التى تشير اليها رواية ابسن الا اذا سلمنا منذ البداية بحقيقة معينة .. هى ان كل شىء فى المسرحية مجند لابراز الحياة الروحية والخيالية التى يحياها البطل .. وهنا تتضح نتيجة معينة .. هى ان الواقع المادى يأتى فى المقام الثانى بعد الواقع الروحى أو الفكرى ـ ان صح هذا التعبير ـ لبيرجنت . وهذه النتيجة بدورها تجعل من بيرجنت هو الشخصية الوحيدة البارزة والمتطورة فى الرواية .. فكل تغيير يحدث له هو ، وكل ماعداه من الشخصيات ثابت جامد مجند لابراز سمات الشخصية الرئيسية فى الرواية .

ونتيجة لذلك نجد ان الرواية رواية رمزية من الطراز الأول .. فبيرجنت ليس الانسان بمعنى ما من المعانى فى سعيه الأزلى الأبدى من أجل العثور على ذاته الحقيقية ومن اجل توكيد هذه الذات . ونجده اذا لم ينجح فى بلوغ هذا الهدف فى عالم الواقع يلجأ الى الخيال عله واجد فيه بغيته .

وتتمثل رمزية الرواية فى أكثر من مشهد .. ولكن هذه الرمزية تبلغ قمتها حينما نجد بيرجنت وقد اضحى عجوزا محطما لاهثا من طول رحلته لا يسعه الا ان يبحث فى ذاته الى الأبد كانما هى



البصلة التى يمسك بها قرب نهاية المسرحية ؛ ويخلع أوراقها واحدة واحدة ليصل الى لبها لكى يجد لا شيء .. !!

ولا يفوتنى فى هذه العجالة القصيرة ان اسجل تقديرى واعجابى بترجمة المسرحية .. فقد نجح الدكتور على الراعى لا فقط فى ان ينقل الينا عبارات ابسن فى أمانة وبراعة بل وايضا كانت ترجمته خير رسول بيننا وبين الروح الذى اراد ابسن ان تتضمنها مسرحيته ، بمعنى ان المترجم قد نجح فى ان ينقل الينا شخصية بيرچنت بكل ابعادها المختلفة كما صورها ابسن .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فقد استطاعت الترجمة ان تنقل الينا مختلف وسائل التقنية التى اصطنعها ابسن فى مسرحيته .. فهو مثلا قد لجأ فى بعض المواضع الى أسلوب الحكاية الخرافية لكى يبرز المعانى التىتزخر بها شخصية بيرچنت .. فاذا بالترجمة ايضا تنجح هى الأخرى فى مثل هذا الأسلوب . وكذلك نجد ان نقل المسرحية الى اللغة العربية لم يفقدها طابع الرمز فى بعض المواضع ويبدو ذلك جليا فى مشهد صانع الأزرار ومشهد المسافر الغريب .

وبصفة عامة نجحت الترجمة تماما فى نقل المعنى الكلى لمشاهد المسرحية ، وفى نقل الحيوية والتفاعل بين هذه المشاهد .

غير ان هناك نقطة ينبغى الاشارة اليها ونحن بصدد الحديث عن المسرحية كعمل مترجم : مجملها ان المترجم كان يعمد فى بعض المواضع الى ايراد بعض العبارات والمصطلحات باللغة الأجنبية التى وردت فى المسرحية الأصلية .. ثم يشرح معنى هذه العبارات والمصطلحات فى هوامش الكتاب . ومن المعروف ان هذه طريقة يلجأ اليها المؤلف أو المترجم فى حالين .. أولهما : اذا كان معنى العبارة او المصطلح سيستفرق عبارات مطولة تشوه السياق اذا وردت فيه . وثانيهما . اذا كانت العبارة او المصطلح ليس لهما مقابل فى اللغة المترجم اليها . ولكننا نجد فى مسرحية بيرچنت بعض المصطلحات والعبارات لا تقف امامها هاتان العقبتان السالف ذكرهما ، وكان يمكن ايجاد مقابلات عربية لها .. ونذكر على سبيل المثال .. ماورد فى ص ١٦٤ Pro tem ومعناها « مؤقتا » .

وما ورد فى ص ٢٠٠ barte blance ومعناها « مطلق الحرية » كما وردت فى هامش الترجمة.

وما ورد فى ص ٢٠٩ Mem herr ومعناها بالعربية « سيدى » كما وردت ايضا فى هامش الترجمة . وغير ذلك من الأمثلة فى عدد من صفحات الكتاب .

غير ان اثارتنا لهذه النقطة هى اقرب الى التساؤل منها الى الاعتراض . فلابد ان هناك مبررا جعل من ايراد هذه العبارات بلغتها الأجنبية امرا ضروريا لابد من اللجوء اليه .

واخيرا فعلى الرغم من الأمانة المطلقة التى التزم بها الدكتور الراعى فى ترجمته للمسرحية.. الا ان القارىء لينسى فى تضاعيف السطور انه بصدد عمل مترجم .. !! وليس هذا بأمر غريب على السيد المترجم .. فقد عهدناه دائما ذا أسلوب سلس متناغم ورصين .

سهام هاشم

سطور من كتاب . . . .

« . . . لعل اجدادنا يتطلعون الينا من المثوى الأبدى الذى تسكنه أرواحهم فى هذا اليوم برضا وفخر .. ولعل أحفادنا الذين ما زالوا فى مجاهل المستقبل سوف يعودون بعد مئات السنين الى ذكر هذا اليوم باعزاز وتقدير .. أيها المواطنون : ان يومنا الحاضر يوم عظيم يرتفع الى مستوى الماضى العريق ويعطى بشائر الأمل فى مستقبل لا تحده آفاق . أيها المواطنون : ان مرحلة من كفاحنا قد انتهت ومرحلة جديدة على وشك أن تبدأ . »

. . . . تحالف الصهيونية والاستعمار

الرعاية الاجتماعية والمواطن

إشراف : بيتر آرشر
ترجمة : عزيز متري عبد الملك
مراجعة : الدكتور بدراوي فهمي

الناشر : مشروع الألف كتاب
٣٥٠ ص ٢٤×١٧ الثمن ٢٢٫٥

« لو كان الفقر رجلا لقتلته » ، بهذه العبارة البليغة ، التى تعبر عن عمق الوعى الاسلامى ، بخطر ظاهرة الفقر فى المجتمع البشرى ، تحدث على بن أبى طالب رضى الله عنه محددا موقفه من هذه الآفة الاجتماعية ، فسجل التاريخ الاسلامى كلمته ، كما يسجل التاريخ الحديث والمعاصر محاولات الانسانية لمكافحة الفقر والتخلف .

واليوم يعلن كثير من الخبراء الاجتماعيين الحرب على الفقر ، من خلال الدراسات الفكرية، التى يقدمونها للبشرية لتستخدمها فى مكافحته ومكافحة الآفات الاجتماعية التى تعمل على هدم كيان الانسان فى المجتمع ، وتثبيت عوامل التخلف الحضارى فيه ، وهى كما حددها « بيتر آرشر » وزملاؤه فى الكتاب الذى نعالج موضوعه الآن «الرعاية الاجتماعية والمواطن» : الفقر ، المرض ، الجهل ، القذارة ، التعطل ، الاستبداد . والعزلة .. واولئك جميعا يشكلون العمالقة السبعة التى ينصب « موضوع هذا الكتاب » على دراستها وتقديم أساليب مكافحتها ، فى محاولة لتحقيق اغراض ثلاثة لقرائه :

١ ــ مساعدة القلقين ــ فى بريطانيا ــ على ايجاد حل لمشاكلهم .

٢ ــ تشجيع المواطنين الصالحين على معونة سيىء الحظ من جيرانهم .

٣ ــ تقديم المعلومات لمن يهتمون ببحث هذه المشاكل ولا يجدون المؤلفات التى تقدم لهم النصح والارشاد .

وقبل ان نستطرد فى الحديث عن الكتاب نرى لزاما علينا أن نوضح الخطة التى سنعالج من خلالها موضوعه ، تلك الخطة التى تنقسم الى مراحل ثلاث :



(أ) عرض موجز للمحتوى الفكرى للكتاب .

(ب) ثم تقييم هذا المحتوى الفكرى .

(جـ) وتقييم آخر للكتاب كعمل فنى يمكن أن يكون جزءا من نهضتنا الفكرية المعاصرة ..

المحتوى الفكرى للكتاب

يقوم الهيكل الفكرى للكتاب على اركان اربعة، الركن الأول يتحدث كل من الخبراء الاجتماعيين الثلاثة ، « بيتر ارشر ، د . ا . برنتيس ، و ج . د . ب . برايس » عن التشريعات والخدمات الاجتماعية فى بريطانيا ، وتقرير « بيفردج » للضمان الاجتماعى ، وقوانين التأمين القومى البريطانى ، ثم حالات الناس المحتاجين للمساعدة والذين يستفيدون من قانونى التأمين القومى واصابات العمل ، ثم ضريبة الدخل وكيفية احتسابها .

فيقول بيتر أرشر ، ان الشعب البريطانى يميل الى الشك فى الموظفين المدنيين ويميل الى وضع السلطة فى يد الموظفين المحليين ولهذا السبب بدأ الاتجاه الى الحكم المحلى الذى ليس بجديد على بريطانيا فقد وجد بها قبل أن توجد الحكومة المركزية ، كما أن الحكم المحلى يسهل على المواطن مهمة الاتصال المباشر بالسلطات المحلية ، والاحساس بكيانه السياسى ضمن هذه السلطة التى يقع على عاتق رجالها معالجة المشاكل المحلية بفهم أدق وعطف أشد ، من فهم السلطات المركزية وعطفها ، كما أن مجالس أوقات الفراغ التى كونها الشعب البريطانى لارشاد الموظفين الرسميين المسئولين عن مختلف الخدمات الاجتماعية ، تحقق الهدف فى حماية موظفى الادارة المحلية من الانحراف وترشدهم الى مواطن الألم عند الشعب ، فان لابس الحذاء هو أدرى الناس بموضع الألم ، فان فشل فى أن يشكو للاسكافى (وبكل أدب طبعا) فلن يلوم الا نفسه .

أما « ر . ا . برينتس » فيقول : ان تقرير « بيفردج » الذى وافق عليه البرلمان الانجليزى عام ١٩٤٥ فيعد تطورا هاما فى تشريعات الضمان الاجتماعى ، لأنه قام على اساس سد النقص فى تأمين الانسان ضد الحاجة والعوز ، بموجب قانون الفقراء الذى يرجع تاريخه الى عام ١٦٠١ ، ومعاشات كبار السن عام ١٩٠٨ ، والتأمين ضد البطالة وتأمين الصحة الصادر فى بريطانيا منذ عام ١٩١١ وغيرها من التشريعات التى صدرت فى عام ١٩٤٠ ، التى لم تكن جميعا سوى محاولة ناقصة مرقعة للتأمين ، جاء تقرير بيفردج ليصحح الهدف ، والذى نتجعنه اول مشروع شامل للتأمين عام ١٩٤٥ . وقانون التأمين القومى الصادر سنة ١٩٤٦ ، والذى بدا تنفيذه فى اليوم الخامس من يوليو سنة ١٩٤٨ ، والذى يعطى للمواطن منحا متعددة منها : معونة البطالة ، معونة المرض ، اعانة الأرامل ، ومعاشات للمتقاعدين وتدفع للرجال فوق سن الخامسة والستين وللنساء اللاتى جاوزن الستين من عمرهن ، ومنح أخرى منها : اعانة الأمومة ، ومنحة الحضانة ، وهبة الوفاة ، واصابات العمل وغير ذلك من المعونات ، والطرق التطبيقية لتنفيذها . كما أن من واجب مجلس المعونة الأهلية أن يساعد الأشخاص الذين لا موارد لهم على سد احتياجاتهم ، أو من تحتاج مواردهم الى مساعدات اضافية لتفى بمطالبهم ، كذلك على المجلس اعداد البيوت للعجزة والمحتاجين للرعاية ، ومساكن مؤقتة لمن هم فى حاجة ماسة اليها لأسباب لم تكن فى حسبانهم ، وتدبيرات لصالح العميان والصم والبكم والمقعدين ورفاهيتهم وكذلك اعداد مراكز استقبال للعمال الموسميين الفقراء ، أولئك الذين ليس لهم وسائل مستقرة للمعيشة .

ثم يضع « ج . د . ب برايس » تعريفا كاملا للنظام الضريبى فى بريطانيا ، وخاصة نظام ضريبة الدخل ، وكيف أن هذا النظام يراعى فى حسابه مسئوليات المعيشة للمواطن بالتنازل عن أقساط معينة من ضريبة الدخل اذا كان المواطن يعول ربة منزل ، أو مديرة بيت وكذلك يراعى فى اعفاء الدخل الفردى للفرد من الضريبة مسئولياته تجاه ابنائه وعددهم أولئك الذين ينفق عليهم بشرط أن يكونوا قد تجاوزوا السادسة عشرة ، وحتى السن لها اعفاءات من

الضريبة ايضا « فكل دافع ضريبة بلغ أو بلغت زوجته الخامسة والستين من العمر وكان مجموع دخله السنوى لا يزيد على ٦٠٠ جنيه له حق الاعفاء من الايراد كله بنسبة ٣/٢ ، ولكن اعفاء الدخل المكتسب لن يكون له حق المطالبة به ، كما ان الجداول الحسابية التى أوردها « برايس » تدل دلالة قاطعة على مدى اعتبار السلطات الضريبية بعامل المحافظة على رفاهية المواطن عند فرض الضرائب على الدخل وللمواطن حق التظلم منها اذا ماكانت ستؤثر على مستوى رفاهيته .

أما الركن الثانى من أركان الهيكل الفكرى لهذا الكتاب فينصب حول دراسة الرعاية الصحية والاجتماعية للمواطن فى بريطانيا من خلال التشريعات التى أصدرتها الحكومة ، كتشريعات الصحة العامة ، والمبانى الخطرة ، والمساكن المتنقلة وازالة الفضلات ، والاشتراطات الصحية العامة الخاصة بالمصانع ، وكذلك خدمة الصحة الأهلية الصادرة سنة ١٩٤٦ – ١٩٥٢ وقد سنت هذه القوانين ضمانا لتحسين صحة الشعب الجسمانية والعقلية ، أضف الى ذلك دراسة وافية « لجين جراهام هول » حول النقص العقلى والمرض العقلى ، فالنقص العقلى هو حالة من العجز تبدو على الشخص عندما يبلغ الثامنة عشرة من عمره ، وهى حالة ترجع الى الاختلاف فى نضج العقل ذاته ومن الصعب علاجه ، أما المرض العقلى الذى قد يصل الى درجة الجنون أو لا يصل فيمكن علاجه أو تخفيف وطأته ويتوقف هذا على درجته ونوعه ، ويقدم « الكاتب » القوانين التى صدرت فى انجلترا خاصة بحالات النقص العقلى والمرض العقلى ومسئولية الدولة والمجتمع تجاههما ، وواجب القانون تجاه ظواهر النقص العقلى كالمعتوهين والبلهاء وضعاف العقول ، والمنحرفين ، كما تتناول الدراسة ايضا واجب الدولة نحو اولئك المواطنين المعطلين جسمانيا أو عقليا كالمشلولين والعميان والصم والمصابين بالسل والصرع ، ثم تتناول الدراسة كذلك حقوق المواطنين الذين بلغوا سن الخامسة والستين من الرجال أو الستين من النساء ، وواجب حصولهم على اعانات كبر السن التى تتفاوت بتفاوت المركز المالى للشخص ، مثل وجود الموارد المالية الخاصة أو عدمها ، كما ينقسم الاسكان بالنسبة لكبار السن هؤلاء الى ثلاث فئات (١) فى المستشفيات (٢) فى منازل الرعاية (٣) السكن فى بيته الخاص ، و ذلك بحسب اختلاف الحالة الصحية لكبير السن الذى من واجب الدولة رعايته ، وكذلك واجبات الدولة نحو رعاية الطفل والأسرة والتعليم كمسئولية قومية ، فى المراحل الابتدائية والثانوية والجامعات والتعليم الأعلى من ذلك ، وكليات المحافظات ، والدراسات المهنية ، وتمتد الدراسة نحو المساعدات القانونية والقضائية التى تقدمها الدولة للمواطن .

والواقع ان مجهود الباحثين فى هذا الجزء من الكتاب لم يتوقف عند عرض القوانين بل شملها بالنقد والتفنيد ، فرغم شمول تلك القوانين للمواطنين بالرعاية الاجتماعية الا أن الدراسة تكشف عن الصعوبات التى تواجه المواطن أثناء محاولة تطبيق القوانين على الواقع ، فهذه الصعوبات كثيرا ما تنشأ فى وجه المواطن عندما ينبه عن حالته ، ولهذا عولت الدراسة على الوصول الى نتائج وحلول لهذه المشكلات التطبيقية مع القاء الضوء على الأبعاد الانسانية التى ينبغى أن يتطور اليها التشريع الاجتماعى فى بريطانيا حتى يشمل المواطن بالرعاية الكاملة ويحقق له فرصة الحصول على حقه دون مصاعب أو تعرض لأوضاع تخدش حياء الانسان أو كرامته فى الدولة .

ثم يتناول الركن الثالث من الأركان الأساسية التى يقوم عليها الهيكل الفكرى لهذا الكتاب تلك العلاقات الاجتماعية والمسئولية الاجتماعية ايضا التى تربط المواطن بجاره .

وتبدأ افكار هذا الركن من الكتاب بدراسة قانون الزواج فى انجلترا وعلاقة الزوج بزوجته فى أسعد لحظات حياتهما ، وفى الظروف الصعبة عندما يكون الزواج فى خطر التصدع والانهيار ، وعندما تصبح معيشتهما معا لم تعد معقولة

عمليا ، وايضا مركز الأطفال القانونى وواجبات الوالدين نحوهم ، ثم وصف مختصر لجهات الاختصاص التى يمكن طلب النصيحة فيها سواء اكانت قانونية ام ادبية ام عملية وكيفية الحصول عليها سواء فى ذلك الأغنياء او الفقراء الذين لا يستطيعون دفع اجرة المساعدة التى قد يتلقونها .

ثم يتلو ذلك دراسة للعلاقة بين المالك والمستأجر ، وحالات الاستئجار والطرق القانونية لها ، والمنازعات التى قد تنشب بين المالك والمستأجر وآداب هذه العلاقة الايجارية بين طرفين من المواطنين ، ثم يتلو ذلك دراسة للعمال فى بريطانيا واوضاعهم الاجتماعية فى ضوء التشريع الاجتماعى البريطانى سواء كان فى ذلك عمال الزراعة أو عمال الصناعة ، ومدى شمول عقد العمل الخاص بهم مبدأ عاما كحد ادنى للمستوى اللازم لحماية صحة العمال وكذلك ساعات العمل وفئات الأجور والتدريب والمنازعات والمصالحات وغير ذلك من المشكلات العمالية ونقابات العمال ومدى حماية القضاء للعامل .

ثم يأتى فى الختام الركن الرابع من الأركان الأربعة التى ينبنى عليها الهيكل الفكرى لكتابنا ، وهو ينصب حول « علاقة المواطن بالحكومة » ، من حيث العلاقات القائمة بين السلطات المحلية والفرد باعتباره شاغلا او مالكا لعقار : بصرف النظر عن القانون العام المتعلق بالصحة العمومية والتشريعات والقوانين المحلية ، السابق الاشارة اليها من قبل ، ومدى ضرورة تخطيط المدن والقرى ، ثم يعالج « ايفان ستون » بالدراسة والعرض قانون الخدمة الوطنية « التجنيد » الصادر فى بريطانيا سنة ١٩٤٨ ، يلى ذلك دراسة وضع سائقى السيارات ، والقواعد القانونية التى تحكم هذا الوضع .. كاستخراج الرخص ، واستخدام الطرق ، والمخالفات أو الأضرار التى يحدثها السائق بالآلة او المجتمع .

والواقع ان هذا الكتاب بصفة عامة ، من حيث محتواه الفكرى ، له اهمية كبرى اذ انه يبصر القارىء فى مجتمعنا العربى ، بأسس التشريع الاجتماعى .. كما يفتح الراى العام على الأصول الفكرية التى سنت على هديها كثير من التشريعات الاجتماعية المطبقة فى بلادنا حاليا .. فقوانين الضمان الاجتماعى وقانون التأمين ضد البطالة مستوحاة من التشريعات الاجتماعية البريطانية وليس من دول الكتلة الشرقية أصلا .

وعلى العموم فان قيمة هذا الكتاب تنصب على الأثر الهام الذى يمكن أن يتركه فى الرأى العام العربى ، اذ انه يفتح مدارك الانسان العربى ووعيه على كثير من الحقوق التى هو أصلا يراها منحة فى الوقت الذى هى فيه حق وواجب له ، بحكم كونه انسانا قد وجد فى مجتمع يضمه ، وهو فرد فيه ، وعضو فى جماعته ، ورقم فى كثافته السكانية التى خلق الله لها الدخل القومى بثرواته لتعيش عليها .. فان أمة من الأمم لا تكفل قوانينها الكرامة الانسانية للفرد وتقيه شر العمالقة السبعة : الفقر والمرض والجهل والقذارة والتعطل والاستبداد والعزلة لهى امة متخلفة فى سلم الرقى الانسانى ، الى ابعد الحدود .

عبدالرحمن أبوالخير

سطور من كتاب . . . .

« ان فحص المريض اشبه بكيل حبوب أو عداشياء . فاذا أردت أن تعرف كمية حبوب أو تعداد أشياء كلت الأولى وعددت الثانية . بمعنى اذا فحصت مريضا وجب أن تفحص كل أجزاء جسمه فحصا دقيقا . تماما كما تكيل الحبوب او تعد الأشياء .. »

. . . . الطب المصرى القديم

أبو مندور

قصة

تأليف

محمد زكي عبد القادر

الناشر

الدار القومية للطباعة والنشر

١٧٦ ص ٢٤×١٧ بثمن ١٧

بين احدى قرى محافظات الشرقية والقاهرة ، تقع احداث قصة « أبو مندور » قصة صبحة بنت أبو مندور . فتاة ريفية جميلة اعطاها الله من جمال الخلقة والخلق واغدق عليها فى العطاء ليكون جمالها نقمة عليها، فوالدها رجل فقير كسير الجناح ، شخصيته ضعيفة منهارة — يعيش على زراعة فدانين من تفتيش « البرنس » ، وتساعده ابنته فى تحمل اعباء الحياة — فهى تذهب كل صباح الى التفتيش مع باقى الأنفار فى مواسم الحصاد والزرع لتزرع وتحصد مع اترابها طيلة النهار لقاء قروش زهيدة .



فى التفتيش وصبحة تشترك مع الأنفار فى جمع القطن ، تتعرف عليها عايدة بنت مفتش « الوسية » وترتاح صبحة لعايدة هانم وتشعر نحوها بالطمأنينة ، وتحدث عايدة صبحة عن القاهرة ومباهج الحياة فى العاصمة وروعتها . فتشتاق بنت القرية لرؤية « أم الدنيا » وتحلم بها .

وتواتى صبحة الفرصة واى فرصة .. سترى القاهرة ومباهجها . . سترى عايدة هانم ، سترى الحلم حقيقة . عندما يقابلها الحاج متولى ناظر التفتيش والأسطى ابراهيم — سواق رفعت بك — ابن المفتش فى الصباح الباكر وهى فى طريقها الى التفتيش ويعرضان عليها ان تسافر مع الأسطى ابراهيم الى القاهرة لترى عايدة هانم وتعود مع المساء لترجع الى بيتها مع باقى الأنفار كأى يوم عادى . وتقتنع صبحة الفتاة الساذجة الطيبة وتركب العربة . وفى الطريق تنتابها افكار غريبة وهواجس عجيبة ... البلد .. ابوها .. أمها .. أخوها محمود .. اختها منى ، وتطلب من الأسطى ابراهيم ان يعود بها الى القرية وتلح فى الطلب ، فقد ساورها الخوف والرهبة من القاهرة ومن جمالها وسحرها ولكن العربة تمضى مسرعة الى « أم الدنيا » .

وتطل عليها القاهرة ، عمارات شاهقة تتضاءل امامها منازل القرية فتبدو وكأنها اكواخ وان شئت فقل جحور ، الشوارع مرصوفة ، العربات غادية قادمة من هنا وهناك الاتوبيسات والترام ، النساء يلبسن « فساتين نصف كم » وكلهن جمال ورشاقة كلهن عايدة هانم ، الناس فى القاهرة متأنقون وكلهم حيوية ونشاط وكأن مأكلهم ليس مأكول اهل الريف . لم تر فيهم بؤس القرية وقسوتها . وانبهرت الفتاة بما رأت فى القاهرة واوحت اليها بلهفة المشتاق الى

التعرف على هؤلاء الناس ، ماذا يأكلون ؟ وماذا يشربون ؟ وما سر سعادتهم وهنائهم ؟ .

وتقف العربة امام احدى العمارات الضخمة الشاهقة وتدخل صبحة هذه العمارة لتجد نفسها فى شقة رفعت بك ابن مفتش الوسية . وتسأل عن عايدة هانم فيعدها رفعت بأنها ستحضر بعد قليل حتى غابت الشمس فداخل صبحة شعور الخوف والرهبة والرغبة فى العودة للقرية حالا وتساءلت :

— انت جايبنى هنا ليه ؟ فأجابها رفعت وهو يتلمظ وأسوأ الغرائز تلهبه .. أنا يا صبحة .. عاوزك ..

— عاوزنى ؟ تعمل بى ايه .. ؟

— بحبك ...

وارتاعت الفتاة الريفية الحافية الفقيرة وقالت :

— بتحبنى يا سيدى رفعت ... ؟ ودى تيجى .. انا فلاحة فقيرة .. انا ولية غلبانة بنت راجل غلبان ... يا سيدى رفعت حرام عليك .. ايه الكلام العيب ده اللى انت بتقوله ؟

وحاول رفعت بشتى الوسائل ان ينال من صبحة ولكنها ردته عنها فى عنف وقوة . وارتمى رفعت بك بشبابه وعزه وعظمته على الكرسى يقرض اسنانه كالأسد الجريح . انهزم العملاق امام فتاة فقيرة حافية .. قزمة — كلا بل عملاقة أمام عملاق ..

وتكررت المحاولة من جانب رفعت بك وازدادت المقاومة من جانب صبحة وكما تكررت المحاولة تكررت الصدمة والنكسة . وهز موقف صبحة رفعت هزا عنيفا وأصابه برعشة أعادته الى الواقع وغيرت من شخصيته تغييرا كبيرا ، اذ افرد لها حجرة خاصة واوكل لها شئون البيت والخدم ، واكتفى منها بالنظرة وآثر مبدأ التعايش بلا محاولات ولا نزوات ، وكأنما شعر نحوها بعاطفة الحب الصادق العميق والفهم الواعى المستنير ، ويبدو أن صبحة بادلته الشعور فى هدوء وعمق .

ولذا كانت صبحة قد قبلت أن ترتدى الفستان بدل الجلباب والحذاء بدل الحفاء فقد تجسمت فيها كل المعنويات الريفية وتأكد حرصها على الشرف والأخلاق ، وكل ما يمت للريف من معنويات ومثل فعندما دعاها رفعت بك لتجالس اصدقاءه وصديقاته رفضت قائلة:

— يا عيب الشوم يا سيدى .. أقعد مع رجالة ...

هذا ماكان من أمر صبحة مع رفعت — أما ما حدث فى القرية أثر اختفاء صبحة فى جو من الغموض فقد كانت حديث القرية بأسرها شيوخها وشبابها واولادها . وكعادة القرية المصرية تضاربت الأقوال والاشاعات حول اختفاء صبحة . وساد القرية جو من الوجوم والحزن ، وانقسم الناس بين مشفق على عائلة ابى مندور وكارثتها وبين شامت فيها . وعاشت القرية فى جو غريب من الهرج والمرج .

ولم يكن امام ابى مندور الأب وافراد اسرته الا أن يبلغوا ضابط النقطة بهجت باختفاء صبحة وقام الضابط الشاب بجمع التحريات واستجواب الشهود دون أن يتوصل الى مكان صبحة ولكن رفعت يعترف لأبيه المفتش بأن صبحة موجودة فى القاهرة فيصعق الرجل الطيب ويثور لكرامته ويصحب محمود ابو مندور ليرى اخته المختفية بالقاهرة .

ويرى محمود نفسه يواجه موقفا عجيبا غريبا ويختلط عليه الأمر فهاهو أمام صبحة اخته التى بدا عليها جمال المدينة وزينتها ، وقد ودعت حياة البؤس والفاقة . وتحكى صبحة لمحمود قصتها مع رفعت بك وما كان منها فى الذود عن عفتها وطهارتها ولكن محمود لا يرضى ببقائها فى بيت رفعت ويوافق على أن تعمل فى بيت المفتش تحت رعاية عايدة هانم .

وتسير الأحداث سيرها فيخطب رفعت بك سميرة هانم بنت حسين باشا مراد — عروسة زى القمر بنت ناس .. أصل مافيش كده .. ابوها باشا وجدها باشا .

وعندمايعلم رفعت ان صبحة قررت العودة الى القرية لأنها ستخطب الى الأسطى ابراهيم

السواق يصاب رفعت بانهيار والغيرة على صبحة تهزه ويتساءل مستنكرا :

موش ممكن .. موش ممكن ، وترد عليه صبحة فى هدوء :

ـ يدوبك على قدنا ـ الواحدة موش لازم تبص لفوق .. بعدين تتعب .

وتبددت الفتاة المسكينة بين حب عنيف وامل عنيف فى ان تعيش فى القاهرة وان تتخلص من الفقر الذى تعانيه ، وارتفع خاطرها الى ما لا يستطيعه واقعها ـ كان هذا هو سر عذابها ، وكانت تشعر فى قرارة نفسها بانه حب لاحق لها فيه .. عاطفة دخلت فى غير موضعها .. كان اصلها ونشأتها والفقر الذى ترعرعت فيه خيالا يعذبها . كانت تعوم احيانا مع المنى والأحلام .

وعندما تعود صبحة الى القرية ، يلقاها الناس بين مستنكر ومشفق .. بين مؤمن بشرفها وبين مرتاب وشاك ، ولم تكن مفاجأة ان يحن رفعت بك الى رؤية صبحة بعد ان غادرت القاهرة بساعات ويسافر رفعت بك الى التفتيش ليرى صبحة فيتعرض له سعد ـ احد شباب القرية ومعه المشفقون على صبحة فهى بنتهم وعرضهم وتنشب معركة بين هذا المعسكر من جانب ورفعت بك ومشايخ القرية والعمدة وخفير التفتيش ولفيف من المنافقين المنتفعين بالتفتيش من جانب آخر .

وتولى القضاء الفصل فى هذه القضية ، ومن ثنايا المحاكمة تلمع الضمائر الحية وتبرز معالم الجيل الجديد .. الجيل المتحفز للدفاع عن الحق والعدالة مهما كلفه ذلك ، جيل يبشر بالثورة ويرفع صوته بالاحتجاج على الظلم والطغيان مثل الحسينى بك رئيس النيابة ووكيله الأستاذ صبرى وبهجت ضابط النقطة ، وتبدو على الصفحة المقابلة صور باهتة شاحبة للرجعية والفساد ممثلة فى شخصية العمدة وصابر ضابط النقطة الجديد وارغامهم الشهود على العدول عن شهادتهم ويلقى المؤلف الضوء على مدى الفساد المتغلغل فى جهاز الحكم فالوزارة كلها ، وزير الحقانية ووزير الداخلية ورئيس الحكومة ورابطة البشاوات والبهوات كلهم يتكاتفون فى محاولة يائسة لطبخ القضية ومحوها ولكن لابد للعدالة من ان تنتصر ولابد للحق من ان يرى النور . فيستقيل الحسينى بك من رئاسة النيابة ويدافع عن قضية صبحة أمام العدالة فيدان رفعت بك بشهر سجن مع وقف التنفيذ وغرامة خمسين جنيها ـ واتساءل لماذا لم يوقع المؤلف برفعت عقابا انسانيا قاسيا ـ ؟ ربما كان ذلك راجعا الى ان المؤلف من رجال القانون فتمسك فى عقابه بمواد هذا القانون ـ المهم أن رفعت أدين وانتصر الحق وثبتت براءة صبحة .

وتؤثر صبحة ان تعيش عذراء وترفض كل من تقدم لخطبتها وتعيش حياة الراهبة حتى توافيها المنية ويأخذها الله الى جواره .

... ما اصدق واروع ان يكتب ريفى عن حياة القرية ومتاعبها ـ فقد تمكن الأستاذ : محمد زكى عبد القادر من معالجة العلاقة بين القرية والمدينة فى قصته الانسانية «ابو مندور» . فقد ابرز هذه العلاقة بكل صدق وأمانة بأسلوب سهل فيه من القوة ما يتلاءم مع طبيعة موضوع القصة وفيه من العمق ما يكشف عن ظهيرة الأشخاص ودخيلتهم . القرية تتطلع الى المدينة وتهفو الى النعيم الذى تعيشه والأضواء الساطعة التى تتلألأ فى سمائها ، اما المدينة فتنظر الى القرية على انها مجرد مزرعة تمدها بالخيرات وعلى الفلاحين ان يشقوا طيلة النهار تحت وهج الشمس حتى يتمكنوا من سداد الايجار للاقطاعى الذى يعود الى المدينة وجيوبه منتفخة بالمال ، وكأن الفلاحين لا حق لهم فى التمتع بخيرات بلدهم وثمرة عرقهم . القرية فى قصة « ابو مندور » تمثل القيم والمعنويات بينما المدينة تمثل التحلل والضياع .



استطاع المؤلف ان يركز الأضـــــواء على مساوىء الاقطاع ومدى تسلطه على الفلاحين فرفعت بك لمجـرد أنه ابن مفتش « الوسية » كان يحرك العمدة ومشايخ البلد وضابط النقطة ومدير المديرية كالدمى فى مسرح العـرائس ، وكانت الحكومة والوزارة تهتز لمجرد أن رفعت بك أصيب فى حادثة « خناقة » كان من الجائز أن يروح ضحيتهـــا عشرات الفلاحين دون أن يشعر بهم أحد وتواريهم القبور كأنهم مخلوقات غريبة عن هذا المجتمع ولا حق لهم فى الحياة .

ويطرق المؤلف موضـــوعا آخر فى غاية من الأهمية الا وهو الفساد المتفشى بين اجهزةالحكم فى هذه الآونة من تاريخ مصر ، فهناكالوصوليون المنافقون كمدير المديرية ورئيس الحكومةووزير الحقانية وقد تجردوا من كل معـــانى الشرف والوطنية محاباة منهم للاقطاعيين والبشوات وبمعنى آخر محاباة الطبقة التى ينتمون اليهـا وكذلك العمـــدة والمرتشون من أعـوانه أذيال الاقطاع ومحاسيبه .

وكأنى بالمؤلف وهـــو يبرز عنصر الصراع وينمى بذور الثورة فى جيـل الثورة يقف وراء هذا الجيل ويدافع عن قضيته . وطبيعة هـذا الجيل التضحية فى سبيل الحق والعدالة مهما كان الثمن ، حتى لو كان السجن أو تركالوطنية فالثوريون يمثلون فى رواية « أبو مندور » جميع طبقات الشعب الكادحة ، صـــانعة التاريخ ، وصاحبة الحق ، فسعد الشاب الريفىالشجاع يعرض نفسه للسجن والاهانة دفاعا عن صبحة التى لا تمت اليه بصلة القرابة ، اللهم الا لأنهـا احدى بنات قريته ، ويربطه بها المصير المشترك والواقع المؤلم ، فهو غيور عليها على شرفهـــا وعرضها ، وبهجت ضابط النقطة الذى يتحدى أوامر المدير وتهديداته ويتبنى القضية ويعرض نفسه للفصـــل التعسفى ، ورئيس النيـــابة الحسينى بك الذى يستقيل من وظيفته لينبرى للدفاع عن قضية صبحة أبو مندور ، ويتحدى تيار الرجعية والاقطاع وينتصر الىجانبالحق .

هذه هى فئات الشعب متضامنة متكاتفة يجمعهم شعور بالظلم ومصير مشترك فمهما كان الظلام حالكا والظلم متسلطا والأصوات مكتومة، فهناك من يحملون مشعل الثورة ويبشرون بها ، ولعل موقف العناصر الوطنية كان حرجا وصعبا فى هذه الحقبة من الضياع بعد انتكاس ثورتهم عام ١٩١٩ ورأوا بأعينهم مصرع الحـــــرية ، والسجون مفتوحة لكل من يرفع صوته منددا بالظلم والطغيان . وكان المؤلف صادقا وعميقا فى ابراز تحديهم للفساد وتصميمهم على الثورة ونصرة الحق مهمـــا كلفهم ذلك . وتمعن انت بنفسك اشباحا تتوارى وصـــورا تبهت شيئا فشيئا على الرغم من أنها تملك الثروة والجـاه والسلطان . اشباحا تحدد مصـــيرها وترسم نهايتها بأيديها وتقرب ساعة الصفر بامعانها فى التسلط والظلم والطغيان ، فكل قرش صـاغ اخذه العمدة رشوة كان بمثابة مسمار فى نعشه ومثله متولى الناظر والمدير وطبقـــة البشوات والبهوات كانت تسير بظلمها نحو الهاوية والنهاية المحتومة .

ولقد استحوذت قصة أبو مندور على فكرى واحســـاسى حتى اننى كنت الهث فى متـــابعة أحداثها بشغف واهتمـام ، وجذبتنى احداث الرواية وتطورها فشاركت الشخصيات آلامهـا وآمالها . واعتمـد الكاتب على عنصر الاثارة ، فالبس قصته ثوبا فنيا جذابا يرضى ما فى نفس القارىء من لهفة وتطلع ، فاشـــخاص الرواية اشخاص عاديون من واقع حياتنا ومن صميم نفوسنا فكان لزاما أن نشهد مصيرهم ونموهم ، ودخل الكاتب الى أعماق شخصياته ليكشف لنـا عن الصراع الذى يعتمل بداخلها آنا عن طريق الحوار وآنا آخر برسم الســـمات والانفعالات الظاهرة للشخصية ، ثم يدخل الى أعماقهـــا فصبحة تملك الجمال ولكن ليس لديها المقومات التى تساعده فهى تهفو الى التخلص من الفقر الذى تعيش فيه ولكن ما باليد حيلة فتركن الى هدوئها العاصف وصمتها الصارخ ، وارتفع خاطرها الى ما لا يستطيعه واقعها ، وكان هذا سر عذابها ، فالقاهرة تستهويها والقرية تشدها فتعيش فى جو من الضياع والقلق . وكان من الممكن ان تعيش فى القاهرة معيشة أية فتـاة فى غمرة الزحمة والضياع ولكن المثل والقيم التى

غرستها القرية فيها تشدها اليها وتحميها من التحلل والانحدار الى مهاوى الرذيلة . والضياع فى رواية أبو مندور هو عدم المقدرة على التكيف والتوفيق بين ما يتطلع اليه الانسان وبين واقعه فصبحة لم تستطع أن تتكيف مع المدينة بجماع كيانها ومشاعرها واحساساتها بصرف النظر عن محاولتها مجاراة القوم فى ملبسهم ولهجتهم فى الكلام الشىء الذى ارتدت عنه وعادت الى جلبابها ولهجة قريتها بعد العودة الى القرية .

وبعد أن عادت صبحة الى القرية شعرت بأنها غريبة فى قريتها وبين أهلها وعشيرتها ، فقد اثرت فيها المدينة ايما تأثير وتعلمت هناك القراءة والكتابة ، وراث من العز والفخفخة ما بهرها وأدهشها وضاعت صبحة بين القرية والمدينة ، وانتكست شخصيتها وتحولت فى النهاية الى شخصية سلبية ، وهذا مأخذ على القصة . فلماذا اراد لها المؤلف أن تعتكف الحياة العامة وتهرب الى حياة الرهبان والنساك ؟ أو لم يكن أجدر بها كبطلة الرواية أن تتزوج وتكافح وتسعى بعقل وعلم الى تحقيق ما كانت تهفو اليه ؟؟ لعل ذلك امعان فى الواقعية من جانب المؤلف . أو لعله أوحى الى صبحة بأن تحنو على فاطمة ابنة اختها عائشة وتقوم بتعليمها وتربيتها « مش عاوزاها تعيش زى ما عشت » ولعل فى ذلك اشارة الى تبرير هذا الهروب من ناحية والقاء الضوء على معالم جيل جديد من ناحية أخرى .

واعود الى طبيعة الصراع الذى يعانيه رفعت بك فهو شاب ثرى مثقف تفشل محاولته فى النيل من صبحة البنت الفقيرة المسكينة ، وتمثل هذه الحادثة نقطة تحول فى شخصيته ومفهومه عن الحياة ، وينظر الى صبحة نظرة جديدة ، ويحب صبحة ويخلص فى حبها ، وهنا يتصارع فى داخله جانبان مختلفان الثقافة والثراء والوضع الاجتماعى من جانب وحبه لصبحة من جانب آخر ، ويفشل رفعت كما فشلت صبحة فى المصالحة بين الجانبين المتصارعين ، ولهذا يقع رفعت فريسة للضياع والقلق .

والملاحظ أن اللغة العامية والحوار العامى يغطى معظم صفحات الرواية ، ولا غرو فالقصة



تحكى حياة أهل الريف وتعالجها ، ولكى تكون الشخصية صادقة الى نفسها والى واقعها فلابد أن تعبر عن هذا الواقع بصدق وعمق ، وأعمق ما يكون الصدق واصدق ما يكون العمق هو ان يتحدث شخص بلسانه ولسان قومه واهله وبيئته ، وكلما كانت البيئة بسيطة كلما كانت لفتها ابسط واصدق ، والمح فى العامية بساطة وصدق أهل الريف ، وعندما ينتقل بنا المؤلف الى مجتمع المدينة فلابد أن تسمع « بابا وماما » وفى ساحة المحكمة تتردد المصطلحات القانونية على ألسنة المحامين والقضاة « الشهود المتهمين التهديد يفسد الدليل ـ القياس مع الفارق ـ الحبس مع ايقاف التنفيذ .. » .

والقصة فى مجملها تصوير صادق وامين لحياة الشعب المصرى فى فترة ما قبل ثورة ٢٣ يولية .

وحملت فى ثناياها تباشير هذه الثورة ودوافعها ومقوماتها ، فان شريعة العدل لا ترضى بأن يكون الفقر ارثا وبأن يكون الغنى ارثا وبأن يكون العلم ارثا والجهل ارثا ، ولم يرض الله عن استغلال الانسان للانسان وتسخير طبقة لأخرى ، انما الجميع سواسية فى الحقوق والواجبات أمام الكفاية والعدالة .

شوقى أحمد وهبه

سطور من كتاب . . . .

« كان جويا ملزما بأن يقدم للأرستقراطية لوحات ترضى ذوقها ، ولكنه أودع لوحاته تلك على أية حال أيضا شيئا جديدا آخر يتجاوز قيود الزمان والمكان . هذا الشىء الجديد هو الجمال الحقيقى الناضر الذى لم يتلفه ابتذال الديمقراطية . »

. . . من رواد الفن الحديث

أخبار الكتاب العربي في العالم

يقدمه مدير التحرير

• لم تمض تسعة اشهر على صدور هذه المجلة حتى كانت « الدار المصرية للتأليف والترجمة » قد انجبت شقيقة لها تخرج للقارىء العربى فى كل مكان تفتح امامه النوافذ على التيارات الفكرية المعاصرة فى العالم لتوثق الرابطة بين فكره وهذه الأفكار الجديدة ولتعمق تفكيره وتمده بكل جديد يربط بينه وبين عصره فلا يبقى منعزلا عما يتدفق من حوله من تيار فكرى عارم .

وهذه الشقيقة هى مجلة « **الفكر المعاصر** » الذى اختير لرياسة تحريرها عالم مفكر هو الدكتور زكى نجيب محمود . ومبدأ هذه المجلة الجديدة – كما يقول الدكتور محمد عبد القادر حاتم – مستمد من ميثاقنا الوطنى ، وهدفها مستوحى من تقاليدنا الثقافية التى استقرت على مدى التاريخ . فقد دعا الميثاق الى ان يكون لنا « فكر مفتوح لكل التجارب الانسانية على اختلاف نزعاتها – يأخذ منها ويعطيها ، لا يصدها عنه بالتعصب ، ولا يصد نفسه عنها بالعقد » .

ويقول الأستاذ الدكتور نجيب محمود ان هذه المجلة ترجو بما تعرضه أمام القارىء من ثمار الفكر المعاصر أن تمهد امامه السبيل الى مسايرة الحركة الفكرية مسايرة لا يكتفى فيها بما يتناقله الناس من عبارات عنها قد لا تكون قريبة من الصورة الصحيحة الدقيقة . وهى اذ تنشر ما تنشره تتوخى أن تختار ما يمثل روح العصر تمثيلا ظاهرا حتى تتكامل امام القارىء على مر الشهور صورة يبنيها لنفسه جزءا جزءا .

ان هذه المجلة الجديدة جناح قوى آخر للنسر الثقافى الذى ينطلق بقرائه محلقا من تلك الدار بجناحين قويين « الكتاب العربى » و « الفكر المعاصر » الى عوالم الفكر ليفتح عينيه على مشارق النور فى كل مكان .

• ومن أجل تعميق الوعى الفنى فى النفوس نشرت وزارة « الثقافة والارشاد القومى » ديوان شعر جميلا ، كلماته صور ، والحانه أصباغ ، وقوافيه انسجام رائع بين ضروب الفن المختلفة من نحت ونقش وتصوير وبناء وادوات زينة وتجميل يبثها الفن من روحه حياة ، وهذا الديوان هو مجموعة اسمها « **الفن المعاصر فى مصر** » تولى تحريرها وتنسيقها فنان شاعر فيلسوف هو الأستاذ حامد سعيد .

وقد ظهرت هذه المجموعات فى ثلاث طبعات مستقلة ، واحدة بالعربية ، وثانية بالانجليزية ، وثالثة بالفرنسية ، وان كان الفن فى غير حاجة الى لغة بذاتها لأنه وحده لغة العالم بأسره .

وقد جاء فى مقدمة هذه المجموعة ان هذا الكتاب أعد ليكون مجرد مدخل الى الفن المعاصر فى مصر وليس بحال من الأحوال دراسة شاملة كاملة للموضوع ، والأعمال المختارة لا تشمل جميع الفنون أو الفنانين ، ولكنها محاولة للتعبير

عن جوهر الموضوع وهو : حوار بين روح البلاد والعصر .

وتضم كل مجموعة من هذه المجموعات الثلاث ١٢٠ لوحة مطبوعة بالأوفست للمشاهير من فنانينا المعاصرين امثال : محمود مختار ومحمد ناجي ومحمد حسن وسعيد الصدر وعبد القادر رزق وسعد الخادم وانور عبد المولى ومحيى الدين طاهر واحسان خليل وتحية حليم وراتب صديق ورمسيس يونان وجمال السجيني وحسن فتحي وعايدة عبد الكريم وغيرهم . كما تضم ٢٢ لوحة ملونة بريشة الفنانين محمود سعيد واحمد صبرى ويوسف كامل وراغب عياد وصلاح طاهر ومحمد ناجي ولنده عبده يوسف وسيف وانلي ورمسيس يونان وغيرهم .

ونبحث بين لوحات هذه المجموعة عن لوحة من اثار حامد سعيد الذى أخرج هذه المجموعة للناس فلا نجد شيئا ، ولعله اراد أن يكون كالالهام الذى يختفى وراء الصورة أو القصيدة أو اللحن .

وهذه المجموعة المتنوعة فى الوان فنها ، الموحدة فى مجموعها هى مصداق لقول الأستاذ حامد سعيد فى مقدمته حيث يقول : « الانسانية انسان واحد ، ولكن لابد أن تتنوع الأعضاء لتتم الصورة ويكتمل المعنى . والكل قادر على العطاء — وليس هناك عاجز — اذا انبثق من بؤرة ذلك المعين » .

وقد تعاونت مع وزارة الثقافة والارشاد القومى بالقاهرة فى اصدار هذا الكتاب دار النشر « يوغوسلافيا » ببلجراد .

• فى سلسلة « **تراثنا** » التى تنشرها « الدار المصرية للتأليف والترجمة » ظهر القسم الثانى من كتاب « **مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان** » للمؤرخ الدمشقى شمس الدين محمد ابن طولون الذى ولد فى « الصالحية » على سفح جبل قاسيون بدمشق سنة ٨٨٠هـ . والمتوفى سنة ٩٥٣ وسجل فيه تاريخ مصر والشام فى الحقبة من سنة ٨٨٤ — ٩٢١ هـ وذلك فى القسم الذى أمكن العثور عليه من هذا الكتاب .

وترجع اهمية هذا الكتاب كمرجع رئيسى لتاريخ دمشق وضواحيها انه يتناول فترة تنقصنا فيها المراجع وهى فترة عاشها المؤلف فى كامل وعيه وسليم تفكيره وان كتابته تتميز بالنزاهة والواقعية ، وانه كان شديد التدين متصوفا فكان بذلك صارما فى آرائه واحكامه على الناس ، دون محاباة أو تملق ، مع دقة ملاحظة وشدة استقصاء للحقائق .

كما ان هذا الكتاب سجل حضارى لمجريات الأمور فى دمشق الكبرى يذكر فيه المؤلف كل ما يمكن ان يخطر على البال مما يكتبه المؤرخ من الأخبار والحوادث والأشياء ، فيذكر اخبار الحكام والنواب — فى دمشق والبلاد السورية الأخرى — وولايتهم ، وتنقلهم الى وظائف اخرى ، أو خلعهم او وفاتهم ، وكذلك اخبار الموظفين الآخرين سواء أكانوا من المماليك أم من المتعممين ، واخبار الأدباء والعلماء والأعيان وأعمالهم ومؤلفاتهم واخبار القضاة الذين كانوا يجمعون بين قضاء مصر وقضاء الشام فى وقت واحد ، الى غير ذلك من الوظائف . وقد تحدث المؤلف كذلك عن الحالة الاجتماعية والحياة العامة واليومية ، وعن الحالة الاقتصادية فيذكر اخبار التجار والأسواق واسعار المحاصيل والسلع .

وقد تيسر للأستاذ الدكتور محمد مصطفى مدير المتحف الاسلامى بالقاهرة سابقا وخبير الآثار الاسلامية المنتدب الآن فى المملكة الليبية ان ينشر المتن الكامل للمخطوط الوحيد من هذا الكتاب الذى أمكن العثور عليه فى قسمين يضمهما الجزء الأول من المخطوط أما الجزء الثانى فلم يعثر عليه حتى الآن . ولأول مرة ينشر هذا المتن الكامل بعد أن نشر الأستاذ ريشارد هارتمان سنة ١٩٢٦ مقتطفات من هذا الكتاب تقتصر على ما يتصل بتاريخ الغزو العثمانى لسوريا ومصر .

ويمتاز عمل الدكتور محمد مصطفى فى هذا الكتاب الى تحقيق النص بالفهارس الوافية منها فهرسان جديدان لم نجد لهما مثيلا فى المراجع الأخرى . وهما : فهرس بأسماء الوظائف والحرف مع بيان من باشروها يستغرق ٥٠ صفحة ، وفهرس آخر بالكلمات والمصطلحات اللغوية والفنية يتجاوز ٤٠ صفحة علاوة على فهارس الأعلام والأماكن .

• فى سنة ١٩٥٢ نشرت مجلة « الكتاب » التى كانت تصدر عن « دار المعارف » ويرأس تحريرها الصديق الشاعر الناثر الأستاذ عادل الغضبان ملحمة شعرية للصديق العالم المحقق الشاعر الأستاذ محمود محمد شاكر عنوانها « **القوس العذراء** » اشارة الى قصيدة الشماخ ابن ضرار الشاعر العربى القديم الذى وصف

فيها قوسا صنعها قواس ثم باعها بعد ان عاش بكد يديه صابر الفاقة عامين ، يعمل عملا يفلت نفسا من الفنى اليه ، اغواه ثراء يبهره ، فما كاد يسلمه للبيع حتى بكى عليه .

وكان الأستاذ شاكر قد قدم هذه القصيدة حينذاك الى الأستاذ شفيق مترى صاحب دار المعارف تذكار أول لقاء بينهما يدور فيه الحديث حول اتقان الأعمال التى يتاح للمرء أن يزاولها فى لمحة خاطفة من الدهر نسميها العمر.

ويرى من خلال ان العمل فى ارث طبيعته فن متمكن والانسان بسليقة فطرته فنان معرق .

هذه الملحمة التى تبلغ قرابة ثلاثمائة بيت، والتى نشرت منذ اثنى عشر عاما ، ستصدر عن « دار العروبة » بالقاهرة فى طبعة مستقلة .

• عنى الدكتور عبد الرحمن زكى الذى كان يتولى منصب مدير المتحف الحربى ويراس الآن تحرير الموسوعة التى ستنشرها مؤسسة فرانكلين ، بالتاريخ لمدينة القاهرة . وقد طبع كتابه « القاهرة » طبعتين ، كما نشر الكثير من البحوث والمقالات عن كثير من معالم هذه المدينة الخالدة . ثم أصدر أخيرا كتابا نشرته الجمعية الجغرافية المصرية عنوانه **« مراجع تاريخ القاهرة منذ انشائها الى اليوم »** دعاه الى تأليفه انه لم يقم واحد من الباحثين بتصنيف المراجع والبحوث والمقالات والخرائط المتصلة بهذه الحاضرة الزاهرة منذ أن نشأت فى عام ٩٦٩ الى الآن ، فقد كان كل كتاب يوضع عن القاهرة يقتصر ثبت مراجعه على ما اعتمد عليه المؤلف . ولكن ظل قسم كبير من مراجع القاهرة غير معروف الا عند بعض الخبراء .

وقد صنف الدكتور عبد الرحمن زكى كتابه هذا على الأقسام الآتية : المراجع العامة والمحفوظات ، الرحلات المخطوطة والمطبوعة ، المراجع الأصلية ، المراجع الحديثة ، الآثار ، المتاحف والجمعيات العلمية ، البحوث والمقالات المنوعة فى المجلات العربية ، الخرائط . واتبع هذا التصنيف فى قسم المراجع الأجنبية بتعديل طفيف . ويقدر عدد المراجع العربية بحوالى ٢٤٠ مرجعا والأجنبية بحوالى ٤٠٠ مرجع .

• نشرت « مكتبة الآداب » بالقاهرة كتابا جديدا للأستاذ توفيق الحكيم عنوانه **« سجن العمر »** هو مرحلة من حياته . وهو يقول انها ليست مجرد سرد وتاريخ لحياة .. انها تعليل وتفسير لحياة . يرفع فيها الغطاء عن جهازه الادمى ليفحص تركيب ذلك « المحرك » الذى نسمية الطبيعة او الطبع . هذا المحرك المتحكم فى قدرته ، الموجه لمصيره . من اى شىء صنع ، ومن اى الأجزاء شكل وركب ؟

وقد بدأ الأستاذ الحكيم هذا الفحص من يوم وجد على هذه الأرض كما يوجد كل مخلوق حى بالميلاد من اب وأم . ثم يقول : « وما دمنا لا نستطيع أن نختار الأجزاء التى منها نصنع ، فلنفحص اذن هذه الأجزاء التى منها تكوننا فحصا دقيقا صادقا ، لنعرف على الاقل شيئا عن تركيب طبعنا . هذا الطبع الذى يسجننا طول العمر » . ولم يلتزم الأستاذ الحكيم فى هذا بالطريقة المألوفة فى سرد تاريخ الحياة حسب الترتيب الزمنى لتتابع الوقائع . ولكنه مزج الأزمان والأحداث فى أكثر الأحيان كى يصل مباشرة الى لب المقصود ، وهو محاولة كشف شىء عن تكوين هذا الطبع الذى يتخبط بين قضبان سجنه طول العمر .

• وقد نشرت « مكتبة الآداب » كذلك كتابا جديدا للأستاذ محمود تيمور عنوانه « جزيرة الحبيب » وهى رحلة المؤلف الى ايطاليا وجزيرة كابرى سنة ١٩٥١ ينحو فيها نحوا قصصيا شائقا . ومن ميزات الأستاذ تيمور انه ينقل المشاهد كالرسام البارع الذى لا تفوته أدق الأشياء فى الصورة . وهو يفتنه الجمال هناك لا ينسى وطنه فيحب أن تكون ملامح هذا الجمال متمثلة فى وطنه ، فهو يقول: « توافر حظ كابرى من جمال الطبيعة ، ولكن القوم تعهدوا هذا الجمال فأحالوه سحرا وفتنة. وان جمال الطبيعة وحده لا يكفى فى اجتذاب العيون وتشويق النفوس ، فلابد أن تؤازره يد الصقل والصنعة والافتنان فى أسباب الترفيه والامتاع . وكم من مشاهد طبيعية رائعة فى جوانب من الأرض تكمن فيها الفتنة، ويستشف منها السحر ،و لكنها تظل كاللآلىء فى أصدافها محجوبة اللألاء حتى تتاح لها لفتات فنية تجيد فيها يد التجميل ، فاذا هى فاتنة ساحرة تهوى اليها **الأفئدة من كل باب** » . ويتذكر مواطن الفتنة والسحر فى مصر فيتساءل : « متى يتاح لهذه المواطن ان تدخل (معهد التجميل) لتخرج عرائس فى زينة وزخرف ، تغلى لها المهور من كل خاطب ود » .

• منذ ربع قرن والأستاذ محمد صبيح يقدم من تاريخ العرب والاسلام صورا مجيدة فى سلسلة متلاحقة الحلقات كان يصدرها بعنوان

« كتاب الشهر » كانت زادا لجيل عرف لهذا الكاتب فضله فى هذا الباب . وكانت سيرة الرسول الكريم اروع ماقى هذه الصفحات . وفى نور هذه السيرة يعود الينا الأستاذ صبيح من جديد — وقد طلب اليه الاشتراك فى تأليف قصة للسينما تتناول فترة ما من حياة الرسول — فيرى فى ضوء هذا النور الربانى مشاهد رائعة للتغيير الاجتماعى الثرى الذى أحدثه الاسلام حين نادى « بأن الناس سواء ، وأن التقوى والعمل هما أساس المفاضلة بين البشر ، لا المولد ، ولا الثروة ولا اللون » . وعلى هدى هذا النور مضى الأستاذ صبيح يبحث ويدرس ويراقب هذا التغيير الاجتماعى ، ويتتبع أشكاله وصورة ليعطى الجيل الحاضر فى كتاب جديد زادا روحيا جديدا متصلا بالزاد الذى قدمه لجيل سبقه . هذا الكتاب هو **«نور الله»**.

● ثم يختار الأستاذ محمد صبيح من التراث العربى كتابا جليلا لمؤرخ جليل . فأما الكتاب فهو **« اسد الغابة فى معرفة الصحابة »**.

واما المؤلف فهو ابن الأثير عز الدين بن ابى الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الجزرى المتوفى سنة ٦٣٠ هـ . ليسير نشره . هذا الكتاب يعد فى مقدمة التراث العربى الخالد الذى ترجم لخيرة رجال الاسلام . وقد اختار الأستاذ صبيح لهذا العمل ثلاثة من شباب العلماء الأزهريين هم الأساتذة محمود فايد ومحمد عاشور ومحمد البنا وأشرف هو على هذا العمل الكبير . فقاموا بالتحقيق على النسخة المطبوعة فى مصر ومخطوطة هندية مصورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية ونبهوا على الخلاف بين النسخة المطبوعة والمخطوطة ، ورجعوا الأحاديث على كتب الحديث السبعة المعتمدة لضبط النصوص والتنبيه الى ما يستحق التعليق وما يحتاج الى شرح لغوى أو تفسير تاريخى . وقد ظهر الجزء الأول منه وهو يضم ١١٤٦ ترجمة تبدأ من حرف الألف وتنتهى بحرف الخاء مع الراء .

● انتهى الأستاذ السيد أحمد صقر من طبع كتاب **« أسباب نزول القرآن »** لأبى الحسن على بن احمد الواحدى مؤلف شرح ديوان المتنبى . وكتابه أسباب النزول يعد أعظم كتاب فى هذا الموضوع ، تكلم فيه أولا فى مبادىء الوحى ، وكيفية نزول القرآن ابتداء على الرسول الكريم ، وتعهد جبريل اياه بالتنزيل ، والكشف عن تلك الأحوال والقول فيها على طريق الاجمال ، ثم فصل بعد ذلك القول فى سبب نزول كل آية روى لها سبب معقول مروى منقول .

وهذا الكتاب هو الذى لخص عنه السيوطى كتابه « لباب النقول فى أسباب النزول » الذى نشر من قبل على هامش كتاب « الاتقان فى علوم القرآن » ثم طبع بمطابع الشعب باسم « أسباب نزول القرآن » .

● كما انتهت « دار المعارف » من طبع الجزء الثانى من كتاب « **الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى** » الذى قام الأستاذ السيد احمد صقر بتحقيقه ونشر منذ سنتين **الجزء الأول منه** . أما الجزء الثانى فان مادته لم يسبق نشرها من قبل فى الطبعات السابقة لهذا الكتاب .

● تقوم « الشركة العربية للطباعة والنشر » بالقاهرة بنشر كتاب « **الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء** » لأبى عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ . بعد أن قام الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل بتحقيقه على النسخ الثلاث الموجودة بدار الكتب : والترجمة للشعراء الذين ورد ذكرهم فى الكتاب وشرح الأبيات والتعليق على آراء النقاد القدامى . وقدم له بدراسة عن المؤلف .

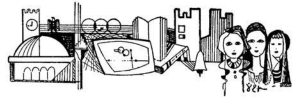
وقد سبق ان قامت « **جمعية نشر الكتب العربية** » بنشر هذا الكتاب وطبعته المطبعة السلفية بالقاهرة عام ١٣٤٣ هـ .

● صدر عن « دار احياء الكتب العربية » (عيسى الحلبى وشركاه) الجزء الثالث من تفسير « **التحرير والتنوير** » للعلامة التونسى محمد الطاهر بن عاشور . الذى قدم لهذا التفسير بمقدمة فى قرابة ١٢٠ صفحة .

وقد قامت دار احياء الكتب العربية فى السنوات الأخيرة بنشر طائفة كبيرة من كتب التفسير وما يتصل بعلوم القرآن ، فنشرت **تفسير** العالم الدمشقى جمال الدين القاسمى ، وكتابى « **تأويل مشكلة القرآن** » و « **تفسير غريب القرآن** » وهما لابن قتيبة وقد حققهما الأستاذ السيد أحمد صقر ، و « **تلخيص البيان فى مجازات القرآن** » للشريف الرضى بتحقيق الأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، و « **البرهان فى علوم القرآن** » لبدر الدين الزركشى بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ، و « **احكام القرآن** » لابن العربى بتحقيق الأستاذ على محمد البجاوى . وابن العربى هذا غير ابن العربى المتصوف .

حسن كامل الصيرفى

تعريفات



معضلة الرجل الأبيض

تاليف : جون بويد أور وديفيد لبوك

ترجمة : حسين أحمد أمين

مراجعة : الدكتور محمد عوض محمد .

الناشر : مؤسسة التضامن العربى ، بالاشتراك مع مشروع الألف كتاب ١٨٣ صفحة ١٧ × ٢٠ .

ث ٥ر١٠ قرشا

من المشاكل الهامة التى عرضت للعالم فى هذا القرن العشرين مشكلة الغذاء والتفاوت فى مستوى المعيشة بين دول العالم المختلفة ، وتراوح هذا المستوى فى الدولة الواحدة . المشكلة اذن لا تهم الدول النامية فحسب ، وانما هى تهم دول العالم كافة ، لأن انخفاض مستوى المعيشة هذا والفقر المدقع فى بعض البلاد ، وعند الطبقات الدنيا فيها يهدد بأخطار حرب عالمية مدمرة ، وصراع لا مدى له ، فضلا عن انتشار بعض المذاهب المنحرفة والمبادىء الهدامة .

هذه المشكلة لا تزال موجودة ، وقد بذلت جهود عدة على المستوى العالمى من أجل التخفيف من حدتها ، ان لم تكن الحل النهائى لها . ولعل من أهم هذه الجهود اضطلعت به عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى وبخاصة فى العشرينات من هذا القرن ، وما اضطلعت به هيئة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية .

لكن هذه الهيئات العالمية لا تكفى وحدها كى تحل المشكلة اذا لم توجد روح عامة للتعاون بين دول العالم كبيرة كانت أم صغيرة ، دون النظر الى اللون السياسى لكل دولة من هذه الدول ، ودون النظر ايضا الى مدى المنفعة التى تعود الى الدولة الكبيرة من وراء مساعدتها للدولة الصغيرة النامية .

هذا هو الموضوع الاساسى فى الكتاب ، وهو كما يعتقد المؤلفان « معضلة الرجل الأبيض » ، أو هو معضلة الدول الكبرى على وجه عام .

وقد عرض المؤلفان لهذه المعضلة أو المشكلة من وجهة نظر انجليزية ، غير أن هذه الوجهة نفسها ليست منحازة تماما كما قد يتصور ، على الرغم من وجود هذا الانحياز فعلا أو التحامل على جهود الكتلة الشرقية لحل المشكلة .

« ان باستطاعة (الدول الغربية الكبرى) سواء تعاون الاتحاد السوفييتى معها أم لم يتعاون ان تعترف بما لا بد ان يتحقق ، وتستخدم تفوقها الصناعى الهائل فى خلق عالم جديد ملىء بالخيرات . فان فعلت ذلك كسبت لنفسها قوة جديدة وسمعة طيبة ، اذ تتولى القيادة فى سير العائلة البشرية نحو عصر السلام والرخاء الجديد ، ونحو الأخوة الانسانية المشتركة التى جعل منها العلم الحديث البديل الوحيد لتدهور المدنية الغربية وسقوطها » .

المختار من أزجال ابو بثينة

بقلم : محمد عبد المنعم ابو بثينة .

تقديم : صالح جودت .

الناشر : الدار القومية — من الشرق والغرب — ٩٧ صفحة ١٧ × ٢٤ .

ث ١٥ قرشا

« يختلف الناس فى تعريف الأدب الشعبى فمنهم من يقول : ان الأدب الشعبى هو ما يكتب بلغة الشعب الدارجة فى أى موضوع ، ومنهم من يقول : انه الادب الذى يكتب لوجه الشعب ، مصورا ملامحه معبرا عن آماله وآلامه ، سواء كتبه صاحبه باللغة الدارجة أم الفصحى ... وسواء صح هذا التأويل أو ذاك ، فان هذه الأزجال التى يعرضها عليك أبو بثينة فى هذا الديوان الأنيق أنموذج من أدب

الشعب يصدق فيها التأويلان ، فهى ازجال منظومة بلغة الشعب ، وهى فى الوقت ذاته موهوبة لوجه الشعب »

هذا بعض ما ورد فى مقدمة الديوان التى كتبها الأستاذ صالح جودت ، وهى تعبر عن وجهة نظر سليمة فى أزجال الأستاذ أبى بثينة ، فأيا كان تعريف النقاد ومؤرخى الأدب لهذا اللون من الأدب الشعبى ، فالذى لا شك فيـه ان الأستاذ صاحب هذا الديوان قد استطاع ان ينفذ الى حد بعيد داخل روح هذا الشعب وفى ضميره ، وما يشعر به من ألم وما يطوف بخاطره من آمال . وهو يلتقط من واقع المصرى وحياته اليومية لمحات ذكية فى عبارة منغمة جميلة ، تشعر من خلالها بأن صاحب هذا الديوان مصرى ، وان زجله هذا موجه الى مصريين .

والأستاذ أبو بثينة يكتب أزجاله منذ ثلاثينات هذا القرن أو قبلها بقليل ، وهو فى ازجاله هذه لم يكن زجالا فحسب ، وانما كان ناقدا يعرض عيوب مجتمعه ، ويصوغها صياغةجيدة تجرحوتصيب ، ولكن تلك الجروح والاصابات لم تكن الا للمشاركة فى بناء أمة ومن أجل هدم العناصر الفاسدة فيها . ومن ثم فقد تخفى صاحب هذه الازجال خلف اسمه عرف به فيما بعد .. وهو أبو بثينة .

وهذا الزجل الذى بين أيدينا ليس الا شيئا يسيرا فى المجموعة التى تضم خمسة دواوين وقد استصفى الأستاذ الزجال بعضا منها ضمنه هذا الديوان .

وبطبيعة الحال فقد كان للعنصر السياسى الجانب الاكبر فى تلك المجموعة من الأزجال ، لارتباطه بالاحوال الاجتماعية السائدة فى عهد ما قبل الثورة ، فجاءت ازجاله السياسية هذه تعبيرا أمينا عن هذه الاحوال .

شقيان ومن قسمتى هد الزمان حيلى
ومال بى بختى ولا حدش عدل ميلى
ساوى النهار فى السواد عندى سواد ليلى
شايل هموم السنين والحمل زاد فوقى
وادينى صابر ولا حدش يشيل شيلى

من ازجاله الوطنية ما نظمه بعنوان « جمال قائد العروبة » .

يا للى سحرت القلوب وجمعتها حواليك
وبالرضا والسماح ألقت زمامها اليك
وخدت صف العرب وبقى اعتمادنا عليك
يا بانى مجد العروبة بعد ما ولى
دا مجدنا الحالى من صنعك وغرس ايديك

ويضم الديوان الى جانب هذا ازجالا اخرى فى موضوعات مختلفة .... فى الصحافة والاجتماع والطبيعة والمرأة والدين والشباب وغيرها ..

فضائل بغداد العراق

تاليف : يزدجرد بن مهمندآر .

تحقيق : ميخائيل عواد .

الناشر : مطبعة الارشاد . بغداد . ٢١ صفحة ١٧ × ٢٤

بغداد ... مدينة السلام وحاضرة الخلافة العباسية ، أخبارها كثيرة تتردد فيما تبقى لنا من تراث الأقدمين . وهذا الكتاب ألفه يزدجرد بن مهمندار وهو من الفرس عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وفيه أفاض فى الحديث عن حمامات بغداد ومنازلها ومساجدها وطرازاتها وغير ذلك من ألوان الحياة الاجتماعية والحياة اليومية بها . وكان دقيقا الى حد بعيد فيما أورده من حقائق ، وان لم يخل كتابه من بعض المبالغات .

وعلى الرغم من جلال هذا العمل وعظم قيمته بالنسبة لدارسى الحضارة الاسلامية ، الا أن كتابه لم يصل الينا كاملا ، وانما تبقت منه فقرات واشارات فى كتب أخرى ، وجاء منه فصل فى كتاب « رسوم الخلافة » لهلال بن المحسن الصابىء من أهل القرن الخامس الهجرى ، وجاء دور الأستاذ المحقق فاستخرج هذا الفصل وشرحه وعلق عليه ونشره أكثر من مرة ، ثم عاد فنشره بعد زيادات وتنقيحات أخرى .

المادة والجزئيات والذرات

تاليف : برتا موريس باركر .

ترجمة : عمر كامل الوكيل .

الناشر : دار المعارف بمصر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين ـ ٣٦ صفحة ١٧ × ٢٤

هذا هو الكتاب رقم ٢٦ فى مجموعة الكتب العلمية المبسطة التى تشرف على اصدارها مؤسسة فرانكلين لتبسيط العلوم فى جميع فروعها كافة . وهذا الكتاب يختص بالمادة واقسامها من جزيئات وذرات ، وما يتصل بها من دراسة للعناصر والمركبات والمخلوطات والفروق بينها . وفى أسلوب ميسر نعرف النظرية الذرية ومم تتكون الذرة وما ينتج عن تحطيمها من طاقة هائلة جبارة .

والكتاب ـ الى هذا ـ يحوى صورا وأشكالا توضيحية وقوائم تفيد الناشئين وتمهد لهم السبيل للتعرف الى الأسس التى تقوم عليها علوم الطبيعة والكيمياء .

القنبلة الثالثة

تاليف : مصطفى مشعل .

الناشر : الدار القومية ـ الكتاب الماسى ـ ٨٢ صفحة ١٧ × ٢٤ . ث ٢٠ قرشا

فى صباح يوم ٦ أغسطس سنة ١٩٤٥ ألقيت أول قنبلة ذرية على مدينة هيروشيما فى اليابان لتعلن نهاية الحرب العالمية الثانية . لقد أدى القـاء هذه القنبلة الى مأساة انسانية كبيرة ، نعرفها جميعا ، فقد هلك ما يزيد على مائة ألف انسان من أهل هـذه المدينة بين رجال ونساء واطفـال ، عـدا من حاقت بهم الاصابات والأمراض والحروق ... ولكن المأساة لم تنته فصولا ، فقبل أن ينصرم عام على هذه الملحمة الدامية حتى تحرك ضمير هـذا الطيار الشاب الذى كان من نصيبه أن يضغط على زر صغير فى طائرته وهى تحلق فى سماء هيروشيما لتصيب أهلها وتصيب العالم كله بكارثة من أعظم الكوارث التى مر بها خـلال تاريخه الطويل .. لقد اعترت هذا الفتى عقدة الشعور بالذنب والجأته الى مصير مظلم أليم فى احدى مستشفيات الأمراض العقلية بالولايات المتحدة .

هذا هو وجه الحقيقة فى المسرحية التى بين أيدينا ، اعتمد المؤلف فى صياغتها وفى كتابة أحداثها على الوثائق المهمة التى تحكى هذه المأساة ، وتصور لنا بشاعة هذا العمل وذلك فى ثلاثة فصول تتراوح أمكنة حدوثها بين هيروشيما والولايات المتحـدة ، وكانت شخوص هـذه المسرحية حقيقيـة . واذا كان المؤلف قد استعان بخيال الأديب وتصوره ، فانما فعل ذلك لتوضيح الصورة العامة ورسم الحقائق المعروفة فى تلك المأساة .

ان شخصا مثل بول تيبتس جدير بالرثاء قبل أن يكون جـديرا بالعقاب ... لقد كان شابا يطمح الى مستقبل مشرق سعيد ، وأن يرجع الى بلاده محاطا باعجاب قومه وتقدير الدولة التى ينتمى اليها .. لعله لم يكن يعرف تماما ما قد يترتب على ما اقترفه فى حق أهل هيروشيما التعسين وفى حق الانسانية جمعاء ، لكنه عرف أخيرا وبعد أن فات الأوان . لقد أنبه ضميره ، وأداه هذا الى أن يفقد حياة أسرية سعيدة وزوجة مخلصة وفية وقلوبا طالما حبته بحبها ورعايتها ، وتركته الآن يجرع آلامه فى صمت ويترع كأس العذاب وحده .

ـ أيها السفاحون ... أيها المجانين .. كفى ما حدث كفى .. لا تلقوا القنبلة الثالثة لقد فقد بول تيبتس عقله لكنه لم يفقد ضميره .

أزمة الحرية فى عالمنا

تاليف : خالد محمد خالد .

الناشر : مكتبة وهبة ٢٨١ صفحة ١٧ × ٢٠ ث ٢٠ قرشا

« هـذا الكتاب يريد أن يقول : ان حرية الانسان فى عصرنا هذا تعانى أزمة حقيقية ، وأن أزمة الحرية فى عالمنا هى أزمة عالمنا ... واذا كان لهذه الأزمة أكثر من سبب فان سببها الأول والأهم هو أن كل نظام من النظم السائدة فى العالم ينظر الى الحرية بوصفها أداة عليها ان تخـدم أغراضه ، بدلا من أن يراها القيمـة الأم التى يجب أن تدور فى فلكها جميع القيم والنظم والاتجاهات » .

يحاول المؤلف فى هذا الكتاب أن يتعمق التجربة ويعيش الأزمة ويقترح العـلاج ، فالحديث عن الحرية فى مجتمعنا الحديث بما فيه من تعقيد وتناقض ، وبما فيه من أنظمة سياسية واقتصادية شتى حديث صعب لا يتيسر لكل دارس خاصة وأن كل نظام من هذه الأنظمة يزعم أنه المعبر الحقيقى عن الحرية ، وأنه جماع كل التجارب الانسانية للوصول اليها .

على أن المؤلف فى معالجته لموضوع الأزمة اقتصر فى بحثه على الحديث عن النظـامين السائدين فى كثرة دول العالم وهما النظامان الرأسمالى والاشتراكى الماركسى ، ممثلا فى دول القمة المعروفة لدينا ، وهى الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفييتى والصين ، وتتبع التطور التاريخى لكل نظام منهما . ومن خلال هذا تحدث المؤلف عن الحرية ، وماذا كان مصـيرها فى المجتمع الرأسمالى ، وماذا كان مصيرها فى المجتمع الشيوعى .

يسود الاعتقاد عنـد البعض بأن النظام الرأسمالى معنـاه اعطاء الحرية لكل فرد ليصل الى المستوى الذى يريده ، ولكن المؤلف يعطينا صورة أخرى مغايرة لما كنـا نظن ونعتقد من أحداث العنف الدامية واضرابات العمال وتعطلهم عن العمل والتفرقة العنصرية ، الى جانب ما تقوم به البرجـوازية الرأسمالية التى تملك لاستغلال الطبقة العاملة التى لا تملك ، وكيف كانت بعض شركات الاحتكار ولا تزال لها جيوشها المستقلة التى تعمل باسمها وبنوك تودع فيها أموالها وعصابات تؤيدها فى ارهاب الآمنين .

فى ضوء هذا من الممكن أن تفسر ما جرى من انكار حق